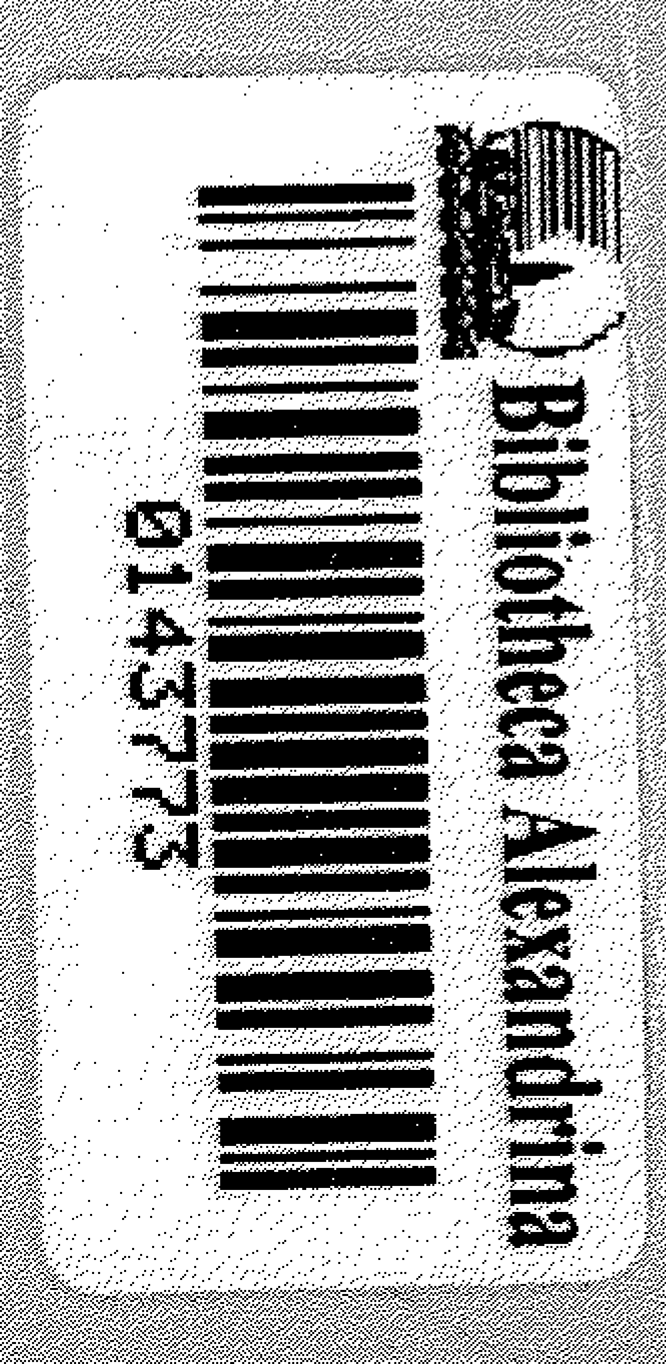
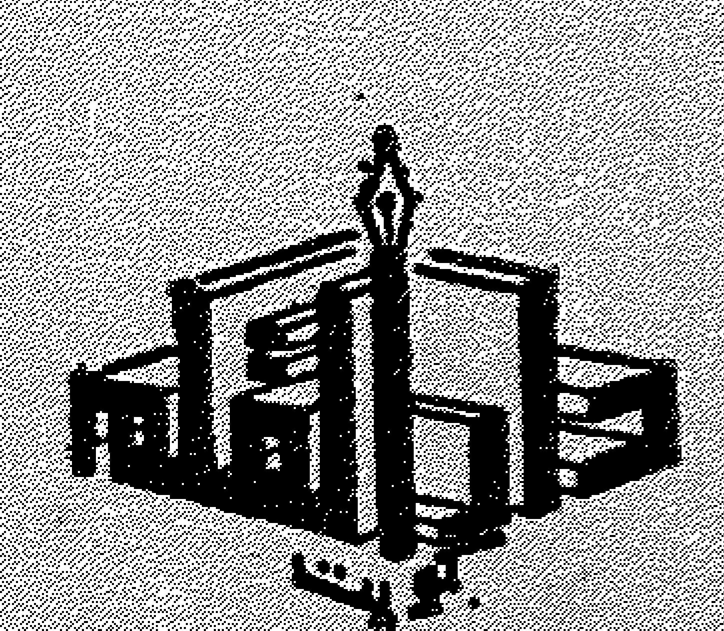
محمد فتحي عثمان

دولة الفكرة





دولة « الفكرة »

التي أقامها رسول الاسلام عقب الهجرة

تجربة مبكرة للدولة الايديولوجية في التاريخ

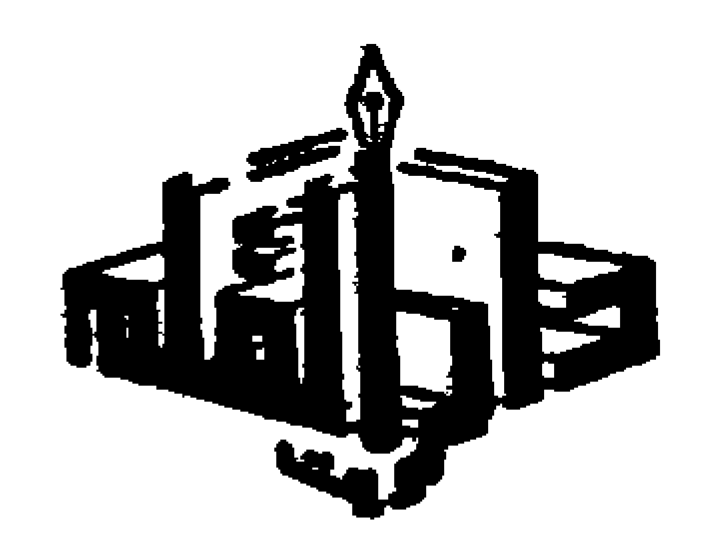
١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

فتحي عثمان

دولة "الفكرة"

التي أقامها رسول الاسلام عقب الهجرة

تجربة مبكرة للدولة "الايديولوجية" في التاريخ



بسم الله الرحمن الرحيم

« إن الذين آمنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا :

أولئك بعضهم أولياء بعض .

والذين آمنوا ولم يهاجروا : ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر ، إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير .

والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير .

والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله . والذين آووا ونصروا : أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم .

والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم : فأولئك

منكم ، وأولوا الأرحام : بعضهم أولى ببعض في كتاب الله .
إن الله بكل شيء عليم » .

قرآن كريم

[من سورة الأنفال ؛ ٧٢ : ٧٥]

تقويم جديد، وتاريخ جديد

في ١٦ من شهر يوليو من عام ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام، بدأ «تقويم» جديد، يستهل بغرة المحرم من العام «الأول» من هجرة رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام، على ما حققه صاحب أطلس التاريخ الإسلامي : هاري و . هازارد drzzaH W yrraH

وقد اختار هذا «التقويم» أن يؤرخ بحادث «الهجرة» .

وكان وقت وصول الرسول إلى (المدينة) في شهر ربيع الأول على التحقيق، ما بين ٢و١٦ منه على اختلاف في الروايات، أي ما يقابل شهر سبتمبر من عام ٦٢٢ م . وهكذا صار عام «الهجرة» هو عام الأول في « التقويم » ، مع التوفيق من ناحية الشهور والأيام ببدء السنة الهلالية عند العرب ، فجعلت « غرة

المحرم » هي بداية العام الهجري ، بدلاً من « يوم الوصـــول » للمدينة . [1]

وقد كان اختيار « الهجرة » للتقويم اختياراً موفقاً ، فهي في الحق استهلال « لتاريخ » جديد ، وإعلان لقيام « دولة » جديدة ....

ولو اختير «مولد الرسول » مثلاً لهذا «التقويم » ـ كما حدث بالنسبة لميلاد المسيح في التقويم الميلادي – لما كان في الاستهلال (بالمولد) غير دلالة عاطفية فحسب ،في حين أننا نجد في «الهجرة» وما ترتب عليها من نتائج «تشخيصاً» إيجـــابياً أقوى دلالة ، لأنه يبرز «الكيان» الفكري والعملي للدعوة الإسلامية في صورة حية واقعية ملموسة محسوسة .

و «الهجرة» من هذه الوجهة أقوى دلالة من بدء « الدعوة » ونزول الوحي أيضاً ، فإن «الدعوة» قد بدأت بين الأقربين ثم أخذ نطاقها يتسع على مراحـل ، في حين أن «الهجرة» كانت حدثاً كبيراً عاماً شعرت به مكة كلها والمدينة كلها على الأقل ، ثم قامت على أثرها «دولة» شعرت بها بلاد العرب كلها وغير بلاد العرب من بعد .

---

(١) هازارد . أطلس التاريـــخ الإسلامي ، الخضري : نور اليقين ، محاضرات تاريخ الأمـــم الإسلامية حـ ١ دكتور حسن ابراهيم : تاريـــخ الإسلام حـ ١ ، دكتور أسعد طلس:تاريخ الأمة العربية ـ عصر الانطلاق حـ١

لقد تمخضت الهجرة عن **« التجسيد »** أو **« التشخيص »** **القانوني** لدولة جديدة ، **هي دولة « العقيدة »** .

ونحن نجد في المشاورات التي انتهت إلى اختيار عام الهجرة للتأريخ وضوح هذا المعنى. يروي «الطبرى» في أخبار سنة ١٦هـ (٦٣٦ م) أن عمر بن الخطاب بعد سنتين ونصف من خلافته جمع الناس فسألهم : من أي يوم نكتب ؟ فقال علي بن أبي طالب : من يوم هاجر رسول الله **وترك أرض الشرك** ، **فغعله** عمر . (١)

(١) الطبرى : جـ ٤ ص ١٨٨

دَولة „الهجرة"

ودولة « **الهجرة** » التي قامت عقب وصـــول الرسول إلى « المدينة » تحتاج إلى الحديث الذي يبرز دورها وخصائصها ... فلطالما تناول الحديث «الهجرة» في أحداثها منذ ائتمرت قريش في مكة بالرسول ليثبِتُوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، حتى وصل إلى « المدينة » وتلقته أناشيد البشر والترحاب : « طلع البدر علينا » ...

وليس معنى هذا أن « الصراع » الفكري والاجتماعي الذي انتهى إلى الهجرة ليس له كبير وزن ... إن « صراعاً » يكاد يخرج بالعرب عن تقاليدهم حتى يلجأوا إلى المكر والقتل بل إلى ما يقرب من الاغتيال لهو « صراع » يستحق التفكير والتحليل .... ولكن أحداث هذه المرحلة قد تعرضت لكثير من الضوء ، أو كانت على الأقل أحسن حظاً في التعرض للضوء من المرحلة

التالية ، حين وصل الرسول **للمدينة فعلاً** ، وكان هـذا إعلاناً **لقيام الدولة الجديدة** .

والدولة الجديدة هي **دولة « الهجرة »** ...

ليست دولة « يثرب » أو « المدينة » ...

إنها دولة « فكرة » و « عقيدة » وليست دولة قطعة من « أرض » .

إن الرسول لم يترك « مكة » ليعلي سلطان « المدينة » ، وحين أعلن الجهاد في « المدينة » لم يكن صراعاً ضد « مكة » ...

ولقد أنكر الرسول على شيخ الخزرج سعد بن عبادة صيحته يوم فتح مكة « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الحرمة » وقال لأهل مكة كلمته الكريمة المواسية « اذهبو فأنتم الطلقاء » ... ولم يكن هذا تحيّزاً من رسول الإسلام لمكة ، فقد عاد إلى المدينة التي نصرته تاركا مسقط رأسه حتى بعد أن دان له بالولاء !!

لقد بدأ الإسلام عالمياً منذ دعا خلق الله إلى عبادة الله :

● « اقرأ باسم **ربك** الذي خلق . خلق **الانسان** من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم **الانسان** ما لم يعلم »

● « يأيها المدثر . قم فأنذر . **وربك** فكبر . »

ولقد توالت آيات القرآن مكية ومدنية تؤكد دعوته الإنسانية العالمية ، تخاطب « الإنسان » مطلقاً دون أي تحديد ، وتذكر « الأرض » مطلقاً دون أي تحديد ، وتتسع عندها الآفاق حتى تستوعب « العالمين » :

● « إنه لقول رسولٍ كريم ... تنزيلٌ من ربِّ **العالمين** . »

الواقعة (مكية)

● « **إن هو إلا** ذكر **للعالمين** . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاؤون **إلا** أن يشاء الله رب **العالمين** . »

التكوير (مكية)

● « والله أنبتكم من **الأرض** نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم **الأرض** بساطاً ، لتسلكوا منها سُبلاً فجاجاً . »

نوح (مكية)

● « يا عبادي الذين آمنوا إن **أرضي** واسعة فإياي فاعبدون »

العنكبوت (مكية)

● « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في **الأرض** مُراغماً كثيراً وسَعَة . »

النساء (مدنية)

● « يأيها **الانسان** مــــا غرّك بربك الكريم . الذي **خلقك** فسوّاك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركّبك . »

الانفطار (مكية)

● « يأيها **الانسان** إنك كادح إلى ربك كَدْحاً فملاقيه »

الانشقاق (مكية)

● « ... يُنبأ **الانسان** يومئذ بمـا قدّم وأخّر . بل **الانسان** على نفسه بَصيرة . »

القيامة (مكية)

● « إنا خلقنا **الانسان** من نُطْفة أمشاجٍ ، تبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . »

الإنسان (مدنية)

● « فأما **الانسان** إذا ما ابتلاه ربُّه ... يومئذ يتذكر **الانسان** وأنـّى له الذكرى . »

الفجر (مكية)

● « لقد خلقنا **الانسان** في كبد . »

البلد (مكة)

● « كلا إن **الانسان** ليطغي . أن رآه استغنى . »

العلق (مكّية)

● « إن **الانسان** لربه لكنودٌ . »

العاديات (مكية)

● « **إن الانسان** لفي خُسر . »

العصر (مكية)

● « يأيها **الناس** إنا خلقنا كم **من** ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . . . »

الحجرات (مدنية)

● « ومن آياته خلقُ السموات والأرض ، **واختلافُ ألسنتكم وألوانكم** ، إن في ذلك لآيات للعالمين . »

الروم (مكية)

● « يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم **من نفس واحدة** ، وخلق منها زوجها ، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا . »

النساء (مدينة)

● « **يابني** آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم . . **يابني** آدم لا يفتننكم الشيطان . . **يابني آدم** خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا . . **يابني آدم** إما يأتينّكم رسلٌ منكم يقصون عليكم آياتي . . . . »

الأعراف (مكية)

● « ولقد كرّمنا بني آدم ، وحملنـــاهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات .... »

الإسراء (مكية)

● « قل يأيها **الناس** إني رسول الله إليكم جميعـــاً ، الذي له مُلْكُ السموات والأرض ... »

الأعراف (مكية)

● « والمؤمنون والمؤمنات **بعضهم أولياء بعض** ، يـــأ مرون بالمعروت وينْهَوْنَ عن المنكر ، ويُقيمون الصـــلاة ويُؤْتون الزكاة ، ويُطيعون الله ورسوله ... »

التوبة (مكية)

● «ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذّكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون . إن في هذ لبلاغاً لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين .»

الأنبياء (مكية)

● « إنما أُمرتُ أعبدَ ربَّ هذه البلدة الذي حرّمها ، **وله كل شيء** ، وأُمرتُ أن أكـــون من المسلمين . وأن **أتْلو** القرآن ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فقل إنمـــا أنا من المنذرين . »

النمل مكية)

● « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون **للعـــالمين** نــذيرا . »

الفرقان (مكية)

وإن هذه الدعوة الإنسانية العالمية ، لتنبثق عن عقيـــدة الإسلام الأصيلة ... في (الألوهية) ذاتها :

«ولله المشرق والمغرب .. فأينما تولوا فثم وجه الله .. ان الله واسع عليم» .

●

ولقد يُطلق على دولة الإسلام المبكرة «دولة المدينة» بحكم قيامها بالمدينة المنورة .

لكن قد يسوق تعبير « دولة المدينة » هنا إلى لبس يوهم أن المقصود أنها كانت دولة من النوع الذي يقوم فيه الكيان الإقليمي للدولة على «مدينة» من المدن City - State مثل أثينا أو إسبرطة في التـــاريخ القديم . والحق إن دولة « الهجرة » ارتبطت بـ « يثرب » ارتباطاً عارضــاً ، ولقــد كانت دولة عقيدية عالمية من أول يوم ... وكان من الممكن أن تقوم في أي مكان آخر يتبنى الفكرة ويدين للعقيدة .

كذلك فإن الدولة الجديدة في المدينة هي دولة « الهجرة » لا دولة « المهاجرين » ... فالمهاجرون هنا لا يعمدون إلى إفناء السكان الأصليـــين أو إجلائهم ، ولا يقيمون المستعمرات أو

يصطنعون الحواجز بينهم وبين سكان المدينة التي انتقلوا إليها ... وهكذا لا نجد تجارب توطين الأوربيين في أمريكا أو استراليا أو جنوبي إفريقيا – على اختلاف درجات حرارتها ... إنها دولة فكرية عقيدة ، سكانها المقيمون فيها من قبل والمهاجرون الوافدون إليها سواء في الاعتبار الإنساني والحقوق القانونية ... والعقيدة معروضة على كل إنسان بحكم إنسانيته ، أيا كان موطنه أو أيا كانت عشيرته ... إنها دولة مفتوحة ، لا تغلق نفسها على جماعة معينة شأن دول « دينية » أخرى قامت من قبل في التاريخ !

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » .

« والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم ، يُحبُّون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أُوتوا ، ويُؤثِرُون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون .

« والذين جاءوا من بعدهم يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » .

البناء القانوني

استقر الفقه القانوني ، سواء في مجال (القانون الدستوري) أو في مجال (القانون الدولي العـــام) ، على أن (الدولة) هي الشخص المعنوي الذي يُمثل (أمة) تقطن أرضاً (معينة)والذي بيده (السلطة العامة أو السيادة) **Souveraineté** .

فأركان الدولة ثلاثة :

● **الأمة** : وتعرف بأنها جماعـــة من الناس مستقرة على بقعة معينة من الأرض ، تجمع بينها الرغبة المشتركة في العيش معاً ، أو لها أهداف مشتركة تعمل على تحقيقها – على حد تعبير رينان Renan . **فالاستقرار على بقعة محدودة من الارض، والرغبة المشتركة في العيش معاً – أي في تكوين وحدة سياسية – هما** العنصران الأساسيان المكونتان للأمة ، وتصبح (الأمة) (دولة) حين تقوم من بينها (سلطة عليا) ، أي هيئة حـــاكمة تزاول السيادة . ويذكر أن العوامل التي تعمل أو تساعـد على تكوين

أمة هي :وحدة اللغة والجنس والدين ووحدة العادات والمصالح والذكريات المشتركة . ويشير رمسى ميور Muir إلى إنه ما من عامل بعينه من تلك العوامل بضروري لتكوين أمة ، كما أن هادون Haddon يلفت النظر أيضاً أنه لاتوجد في العصر الحديث شعوب يمكن القول بنقاء جنسهـــا اللهم إلا بعض البدائيين في إفريقية وآسيا واستراليا .

● **السيادة** : ويقصد بها السلطة العليـا Pouvoir suPreme وكان التعبير لا يعني إلا مغزى سلبياً ، أي السلطة العليا المستقلة استقلالاً تاماً أو التي لا تخضع لسلطة أخرى أعلى منها ، ثم اتسع المغزى وصار له دلالة إيجابية ، فأصبح يُقـال مثلاً إن الدولة بناء على مالها من السيادة تضع الدستور وتعقد المعاهدات وتفرض الضرائب ... الخ .

وللسيادة وجهان : داخلي وخارجي .

فالسيادة الخارجية : يقصد بها عدم خضوع الدولة لدولة أجنبية ، وذلك فيما عدا ما تعقده الدولة من اتفاقات هي بذاتها مظهر من مظاهر سيادة الدولة ، وسيادة الدولة الخارجية مقيدة باتفاقاتها الدولية .

والسيادة الداخلية للدولة : يقصد بها أن سلطـة الدولة لا تعلوها سلطة أخرى في ميدان نشاطها داخل الدولة ، أي في علاقاتها بالأفراد والجماعات التي تقطن أرض الدولة .

والمذهب الفقهي السائد في القانون العام في فرنسا حالياً ينزع إلى أن الدولة ترتبط حتما بمبادىء عليا تقيد سيادتها وأن سلطتها ليست مطلقة ، وليس في هذا ما يناقض فكرة السيادة نفسها . ولكن تتعدد الآراء حول ماهية هذه المبادىء العليا أو القيود ، وحول السلطة التي تفرضها ، وحـــول قيمتها : قانونية هي أو سياسية أو أدبيـــة بحتـــة . فنظرية (التحديد الذاتي) pauto - limitation في الفقه الألماني : تذهب إلى أن الدولة لا يمكن تقييدها إلا بإرادتها ذاتها ، لأن الدولة هي التي تخلق القانون ، بينما تذهب نظرية (القانون الطبيعي) Droit Naturel كما يذهب (المذهب الفردي) Doctrine indiudualiste من أصـــول الديمقراطية الكلاسيكية إلى أن للأفراد حقوقاً ولدت معهم ، وهي لاصقة بهم لا انفصال لها عنهم ، اكتسبها الإنسان كحقوق طبيعية لمجرد كونه إنساناً . فهي سابقة على نشأة الدولة ومقامها فوق مقامها وفرض على الدولة احترامها ، بل إن الغـــاية من قيام الدولة وما يتقرر من قواعد قانونية إنما هو حماية تلـــك الحريات والحقوق الفردية ، وهي حقوق يتبيّنها المرء بفطرته . فليس للدولة أن تضع على حرية الفرد من الحدود والقيـــود إلا القدر الضروري اللازم لكفالة الحرية لجميع الأفراد ، ولا يصح فرض هذه الحدود والقيود إلا بواسطة التشريع la loi الصادر من الهيئة النيابية (البرلمان) . على أن (النزعة الاجتماعية) التي أخذت تؤثر على شتى مناحي الفكر قد كان لها أثرهـــا في فلسفة القانون أيضاً ، فظهرت آراء تحاول أن تتوقى غـــلـه

النزعات الفردية على ألا تحيف في الوقت نفسه ــ قدر الامكان ــ بضمانات الحرية .

● **الاقليم :** هو المدى أو النطاق الذي تزاول فيـــه الدولة سلطانها على الأشخاص وعلى الأشياء ، وهو يشمل الأرض ومدى معيناً من مياه البحر وطبقات الجو . [1]

* * *

وجاء قيام (دولة الهجرة) مستكملاً لكل هذه الأركان .... ولكنها ما أخذت مكانها ودورها في التاريخ لواحـد من هذه الأركان !!!

● **قامت « دولة الهجرة » على « أمة »** .... ولكنها أمـــة تقوم على أساس الفكر والعقيدة ! فهي (أمة) لا يمكن حصرها أو ضبطها ، لأنها لا تحدّها لغة أو جنس أو وطن ، فقد عرض رسول الله عقيدته على كل فرد وقبيلة ومدينة استطاع أن يعرض هذه العقيدة عليها، وترك المجال أمام (الإمكانيات الإيديولوجية) لا (الحتمية الجغرافية) !!

● **وكان لـ « دولة الهجرة » « سيادة » داخلية وخارجية** ... لكنها (سيادة) تحققت في واقـــع الأمر من أول يوم في

---

١ ـ دكتور عبد الحميد متولي : الأنظمة السياسية ص ١٥ : ٣٥

الإطار المثالي الذي تطلعت إليه فلسفة القانون إلى وقتنا ولم تفلح في أن تجد له سبيلاً إلى التنفيذ ؛ **فهي سيادة قامت على (الاختيار) الحرّ في اعتناق (الفكرة) من جانب الافراد ، وفي الاجتماع لاقامة (الدولة) من جانب المجموع** ، ومن ثمّ تأسست سيادة الدولة الجديدة فعلاً وواقعاً على تقديس الحرية الإنسانية ، بحيث تكون هذه الحرية هي أساس الدولة الفكري وقانونها الأعلى .

● **وكان لـ « دولة الهجرة » إقليم** ... اختارته الظروف لها وكان اختياراً موفقاً ... لكنها لم ترتبط به ولم تقتصر عليه ، وكان من الممكن أن تقوم في أي مكان آخر يقبل (الدعوة) : مكة أو الطائف مثلاً ... ذلك أن الدولة الجديدة دولة (فكرة) ، والفكرة تجد وطناً في كل مكان يوجد فيه عقل إنسان !!

الكيان المعنوي

لقد استكملت (دولة الهجرة) إذن كل ما اشترط الفقـــه القانوني السائد من أركان .... ولكنها لم تأخذ خصائصهـــا الفذّة ومكانها الفريد لواحد من هذه الأركان !!

إنها دولة (الحرية) .... لا (الحتمية) .

إن الإنسان لا يختار أباه وأمه ليختـــار الدم الأزرق أو الأخضر الذى يحسب عليه طول حيـــاته .... وهو لايختار لوالدته فراش الوضع الذي يتقرر به مصيره ومستقبله وفقاً لمسقط رأسه !!

ولكن الإنسان يستطيع أن يختار.. فكرة ، أو عقيدة!! على أن يكون الاختيار ... حراً، بريئاً من شتى الضغوط !!

* * *

وكان الجديد في (دولة الهجرة) .... أن تكون أرحب في آفاقها من الدم والارض ، والسكان والاقليم !!

لقد قامت الدولة (الايديولوجية) الجديدة في التاريخ، على أساس إنساني (مفتوح)

« لا إكراه في الدين » .

«قد تبيّن الرشد من الغي» .

«فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

هكذا قامت دولة جديدة... مفتوحة ... بغير إكراه . لكل عقل رشيد !!

دولة تقدّس (الإنسان) ... لأنها تؤمن بالله : رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس .. هو وحده الذي ليس كمثله شيء ، وليس له كفواً أحد ... والناس بعد ذلك كلهم أجمعون ـ بغير استثناء ـ أشباه وأنداد ، كلهم مخلوقون وكلهم عباد ...

ورب الناس هو رب (العالمين)، بريء من المحاباة والتحامل، لا ينحاز لجنس ولا لأرض: «ومن آياته خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين » ... ولا يصانع سلطة أو طبقة : «ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » !

وكان على من يزاول الاختيار الحر ويمارس الفكر أن يصير منطقياً مع هذا الأساس الجديد ، فيجاهد أهواء النفس وإيحاء الجمع ورغبة المصلحة ورهبة السلطة، ليعلي ميزان الرشد والحق.

« قل : إن كان آباؤكم، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم، وعشيرتكم .

« وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها .

« ومساكن ترضونها .

« أحبّ إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » !!

وأيّ فسقٍ أفسقُ من الإنتكاس والارتكاس إلى عصبيات الدم والأرض ، ومغالبات المال والتجارة ، لتخطط علاقة الإنسان بالإنسان ، وتحدّد للإنسان فلسفة في الكون والحياة ؟؟

* * *

وإذا كانت «دولة الهجرة» دولة لها طابعها الإنساني الفريد في مجالاتها المفتوحة الفسيحة من حيث «الأمة»، و «الإقليم»...

فان لها طابعها وخصائصها في مجالات « سيادتها » و « سلطتها » في الداخل والخارج على السواء ...

فميزان الرشد القائم بين الناس لإعلاء اعتبارات الفكر وأصول الحق ، لايزال يدفع الانسان ـ بقدر ما في طاقة الإنسان ـ للتجريد الموضوعي الأمين ، بعون من الحكمة الإلهية المحايدة ...

«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط » .

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط ، شهداء لله . ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلوُوا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً »

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » !

وهكذا تشع العقيدة في « الله » هداها على الواقع المحسوس .....

وتقوم « دولة الفكرة » على أساس جديد .....

« **فالانسان لا يتحقق توازنه النفسي والعقلي إلا بأن** يعرف مركزه في الكون : هل هو القوة الكبرى التي تتحكم في كل شيء فيطغى ويطيش ، أم هو عبد الطبيعة وريشة في مهب الريح فيضعف ويستخذي ؟؟

« والعقيدة الربانية تجعل هذا الكون الذي خلقه الله مسخّراً بأمره لعباده من بني آدم الذين كرّمهم وفضلهم تفضيلاً ، ومن هنا يأمن صاحب العقيدة شر العجز الكسير وشر القوة المغرورة سواء بسواء ، فهو لا يلتصق بالأرض ولا يشمخ في السماء ، لا يطغيه الفرح ولا تشقيه المصيبة ، إن أصابته السراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته الضراء صبر فكان خيراً له !

« والنـــاس لا يتحقق فيهم التوازن الاجتماعي إلا إن استشرفوا قوة أكبر من الإنسان ومتاعاً أكبر من الحياة الدنيا ، فإن تجاهلوا قوة الله وحساب اليوم الآخر فسيعيشون في حدود أنفسهم ، ومن ثمّ تكون النتيجـة الحتمية لمن آمن بالإنسان فقط أن يؤمن بنفسه فقط لأنه إنسان لا يزيد غيره من النـاس عنه شيئاً ، وتكون النتيجة الحتمية لمن آمن بدنياه فقط وعليه أن يحرز من هذه الدنيا أكبر قسط عن أي طريق ما دامت هي غاية همه ومبلغ علمه !!

« وهكذا تتأصل جذور (الأنانيــة) الفردية و (المادية) النفعية في المجتمع الإنساني ... ولن تستطيع (فلسفه أخلاقية) أن تثمر ثمرتها ما دامت هذه الفلسفة نتاجاً إنسانياً من إنسان مماثل ، ولن يستطيع (قانون) أن يقتلع الجذور الشريرة لأنه صناعة إنسانية ، ولمـاذا يكلف الإنسان نفسه أن يخضع لإنسان ؟؟... قد تهدد الإنسان بالقوة ، وهنـا يكلّفه منطقه الفردي النفعي أن يوازن بين الأرباح والخسائر لا غير !! ثم من هذا الذي سيحرس الفضيلة أو يقيم القانون عن طريق القوة ؟ إنه إنسان مثل الناس ، أناني نفعي مثلهم ، يحتـاج لغيره كي يهدّده بسلطان القانون وسيف القوة ... وهكـذا يكون كل الناس حراساً ومحروسين ، ولا تجد أخيراً من يحرس الطبقـة العليا من الحراس !! وهيهات للعدالة السياسيـة والاجتماعية

والدولية أن تستقر في مجتمع كهذا »[1] !!!

وعلى هدي هـذا الميزان الرشيد والضمان الأمين في الدولة الإيديولوجية الجديدة ، نرى (**المبادىء العليا) التي تقيد سيادتها وسلطتها** تتقرر وتتحدد في وضوح ...

فهي تعمل بما لها من سيادة وسلطة على مقاومة «العدوان »، لا على استئصال «الإنسان » .... في الخـارج والداخل على السواء .

● **انها دولة ايديولوجية ، تقوم على فكرة وعقيدة ، ولكنها لا تصادر الأفـكار والعقائد الأخرى** ، وإنما تدفع (العدوان) من جانب أصحاب تلك الأفـكار والعقائد فحسب : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ، أن تولـّوهم ، ومن يتولـّهم فـأولئك هم الظالمون » !

فان توقف (العدوان) فقد تقدّست حرمـات (الإنسان) : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجـوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتقسطوا إليهـم ، إن الله يحب المقسطين » !!

ومن أجل احترام حقوق (يهودي) في الاتهام التحقيق والمحاكمة ،

---

(١) من كتاب « الدين الواقع » للمؤلف ، فصل : (بصائر من ربكم)

وحين كاد يختل الميزان افتئاتاً على هذا اليهودي من أجل تضليل العدالة عن المتهم الحقيقي تتابعت هذه الآيات :

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله ، إن الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوّانا أثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطاً . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا . ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما . ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليما حكيما . **ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتاناً واثما مبيناً .** ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يُضِلّوك وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرّونك من شيء ، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ، لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما » !

ونحن نجد القرآن يتعمق في تحليل سيكلوجية اليهود « الجماعية » ، لكننا نجده كذلك جدّ حريص على ألا يجني «التعميم» في صياغة النتائج بالنسبة «للجماعة» على عدالة الحكم

بالنسبة (للأفراد) : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك ، ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ! .

● وهذه الدولة تحارب طغيان رأس المال في معركة مقدسة بأمر الله ورسوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله .... »

فان اجتثت زوائد الشر وعدلت انحرافات الظلم فقد وجبت صيانة (الانسان) عن الفناء أو الضياع : « فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم ، لا تَظلمون ولا تُظلمون » !

على أن القرآن لا يترك صاحب الحق حتى يدعوه إلى ألا يتعسف في اقتضاء الحق ، ويُرغبه في التنازل عن أصل الدين أو تأجيله بإرادته الحرة بعد أن أبطل زوائد الربا بحكم القانون : «وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » .

● والدولة الايديولوجية لاتبطل العصبيات والأهواء لتقيم

عصبية جديدة باسم الفكرة والعقيدة ... إنها لا تكرر تجربة الشعب المختار الذي ينظر إلى (الله) على أنه إلهه هو دون سواه [1] !!

---

(١) دخل العبرانيون أرض كنعان جنوبي سوريا في هجرات أبرزها الهجرة التي أتت من مصر والجنوب الشرقي بقيادة موسى (ويشوع) في أواخر القرن ١٣ ق.م. وتذكر الروايات العبرانية أن إبراهيم أتى من (أور) في بلاد الرافدين بطريق (حران) وأقام قرب حبرون (الخليل) وهذه الروايات تؤثر اسحق بن إبراهيم على أخيه اسماعيل كما تؤثر يعقوب (إسرائيل) ابن اسحق على أخيه عيسو . لكن تاريخ بني إسرائيل الحقيقي كشعب يبدأ بالخروج من مصر وقد اصطدموا في جنوبي شرقي الشام بالسكان السابقين من عموريين وكنعانيين وآراميين فضلاً عن الوافدين الذين سموا بالفلسطينيين واقتسمت قبائلهم ما غلبت عليه من أراض .

وشملت فترة الاستيطان أواخر القرن ١٢ ومعظم القرن ١١ ق.م. وفي تلك الفترة دان العبرانيون لزعماء عرفوا بالقضاة . وأسس داود مملكة متحدة نحو ١٠٠٤ - ٩٦٣ ق.م. وورثة سليمان ثم انقسمت الاراضي الزراعية الشمالية عن الجنوبية الرعوية ونشب العداء بينهما وسقط الشمال في يد سرجون الثاني الأشوري ٧٢٢ - ١ ق.م. وتعرض الجنوب لهجمات أشور وسقط سنة ٥٨٦ ق.م. في يد نبوخذ نصر الذي أقام دولة بابلية جديدة (الكلدانية) .
ويقول فيليب حتي : « كان يهوه إله العبرانيين وحدهم وسيطرته كانت على أرض اسرائيل .. ويهوه كان يسره إنزال العقوبات القاسية بالمصريين واستئصال العموريين والكنعانيين (سفر يشوع ١٠ : ٨ - ٤٢) » راجع حتي : تاريخ سوريا جـ ١ ترجمة حداد ورافق ص ١٩٠ ، ٢٣٧ . لمحات من التاريخ في الكتاب تلخيص حبيب سعيد بالعربية لكتابي كاترين هنري : ص ١٤ وما بعدها .

إنها دولة تجعل المؤمنين قوامين بالقسط شهداء لله ، وتحارب البغي في كل مجال ، ودفعها للبغي إن نبت في أرضها أوجب وأقدس : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » .

فإن قُلمت أظفار (البغي) ، عاد الأصل المقرّر في حفظ حرمات (الإنسان) : « فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » !!

إن الإنسان لا يستفيد كثيراً إن تبدلت مواضع (الظالم) و (المظلوم) في ساحة اللعب ، ما دام لا يزال هناك ظالم ومظلوم !!

إن الدولة الإيديولوجية أغنى بـ (الفكر) عن الحقد ... و بـ (الحق) عن الهوى ..

وهي حريصة على أن ينتصب ميزانها الرشيد الأمين قائماً شامخاً لا يهتز أدنى اهتزاز ، مهما زمجرت العواطف واشتعلت الانفعالات !

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدُّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا .

وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان .

واتقوا الله ... إن الله شديد العقاب » !!

دَولـة إيديُولوجيّة

على هذا الأساس الجديد الرشيد ، قامت دولة «الهجرة» ..

● إن كتابها الذي بدأت آياته تنزل في مكة ، قـــد استهل دعوته بأكرم تكريم للإنسان في **عقله** وفكره : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم. الذي علـّم بالقلم . علـّم الإنسان ما لم يعلم » .

لقد أعلن هذا الكتاب الثقة بالإنسان ، وعرض دعوته على أولي الألبـــاب ، والذين يبصرون ويعقلون ويتفكرون ويرشدون ، وقرّر أن مهمة الرسل والأنبيـــاء ، هي – ليس غير – البلاغ المبين !!

« كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ... ليدبّروا آياتــه .. وليتذكـّر أولو الألباب »

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه .. ليبيّن لهم »

« فذكّر إنما أنت مذكّر .. لست عليهم بمسيطر »

« فإن تولوا . فإنما عليك البلاغ المبين » !

● والله لا يتعامل مع خلقه بالجبر ولو على الخير .. إنه يقدس حريتهم ويقرر مسئوليتهم ... إنه لا يفرض الإيمان على النفس، ولا يمحو الكفر من الوجود !

إنه لا ينصر الدين بالخوارق ، ولا يفني أعداءه بالمعجزات ، ولكنه يترك نواميس الكون الذي خلقه بالحق كما أنزل كتابه بالحق ... يتركها لتعمل عملها في الفرد والمجموع !

« ولو شئنا لا تينا كل نفس هداها »

« قل فلله الحجّة البالغة ، ولو شاء لهدا كم أجمعين »

« ولو شاء الله لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

« ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض »

« ولو أن قرآناً سُيرَت به الجبال أو قُطعَت به الأرض أو كُلم به الموتى .. بل لله الأمر جميعاً » !!

● والقرآن يسجل في أمانة – دعاوى الخصوم ، ثم يورد الرد والتفنيد .. إنهم لا يتطلبون « المنطق » الهادىء بل المعجزة

الصادعة ، ولا يرتضون الرسول « الإنسان » بل الملـــك ذا الأجنحة والتهاويل .. أما من ناحية الموضوع فما عندهم مـــن حياة إلا الحياة الدنيا وما من قوة تعمل عملها في الأحيـــاء إلا الدهر ، ثم ما بالهم يُطالبون بالعطاء وربهم قادر عليه ؟؟

« فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » ... « وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » !!

« وقالوا ما لهـذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لولا أنزل إليه ملكٌ فيكون معه نذيرا » !!

« وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ... »

« وإذا قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمـــه ، إن أنتم إلا في ضلال مبين » !

« وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء » !!

وهكذا يورد القرآن ـ في منهجه الأمين ـ اعتراضات الخصوم .. ليقدّس (الفكر) في تعامله مع كل دعوة وقضية ، ولو كان صاحبها هو ربُّ العالمين !!

● ويتعقّب القرآن هذه الاعتراضات .. ولا يكتفي بهذا المنهج السلبي في الردّ على الاعتراضات ، بل يسلك منهجاً ايجابياً يفتح فيه الحواس والعقول والنفوس على الدلالات والشواهد ، دلالات الكون الكبير في الطبيعة والفلك والحياة ، وشواهد التاريخ والاجتماع .

« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلكٍ يسبحون »

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك .. إنما يخشى الله من عباده العلماء »

« وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

« ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمّةً واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

ثم يعطي الكتاب العقل مفاتيح الطريق :

« أم خُلقوا من غير شيء .. أم هم الخالقون » ؟؟

«لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله ... لفسدتا» .

«أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا تُرجعون ؟ فتعالى الله الملك الحق » !!

وما أورع وألطف الإمام الحجة (ابن حزم) ، وهو يقرّر أن الله تعالى قد علم المؤمنين الجدال والمناظرة ، وأبان لهم كيف يُحاجُّون (الدهرية) و (الثنوية) وغيرهم .. وجعلهم على ملّة (ابراهيم) وملّته الجدال والمحاجّة [1] : «ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك .. » «وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة .. وكذلك نُرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين . » «ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين . اذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون .. وحاجّه قومه ، قال أتحاجُّوني في الله .. وتلك حجّتنا آتيناها ابراهيم على قومه ... »

إنها دعوةٌ مفتوحة لكل عقل ...

« ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن »

« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن» .

« وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكانتكم ، إنا عاملون

(١) ابن حزم الإحكام في أصول الأحكام جـ ١ ص ١٣ : ٢٩ .

وانتظروا إنا منتظرون » .

« وإنا وإياكم لعلى هُدىً أو في ضلال مبين . قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنـــا ، ثم يفتح بيننا بالحق ، وهو الفتاح العليم » .

وعلى العقل أن يجتهد ليختار .. والمجتهد المخطىء أفضل من المقلّد المصيب ـ كما قرر الإمام (ابن حزم) أيضاً . فالمجتهد المخطىء مُثابٌ على اجتهاده غير موزور على خطئه ، والمقلّد المصيب موزور على تقليده غير مثاب على صوابه !!

إن موضع التكليف في فقه الإسلام ... هو العقل والإرادة الحرة ! ودين الله يقدّس الحرية ، ولو كانت حرية الخطأ :

« قال ياقوم : أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده .

« فعُمّيَت عليكم .

« أنُلزِمُكُموها .. وأنتم لها كارهون » ؟؟

هكذا يقدّس الكتاب « الفكر » ... ويقرر « الاختيار » الحـــر .

إنه إعلان مقدس مشهود لكرامة « الإنسان »

« لقد أنزلنا إليكم كتاباً .. فيه ذكركم .. أفلا تعقلون » ؟؟

* * *

وجاء دور التطبيق ....

عرض الرسول دعوته في (مكة) وفي غيرها : على (قريش) وعلى غيرها .. فأجاب من أجاب على خوف من الطغيان أن يفتنهم ... فلم تكن شبهة في إسلام من أسلم قبل الهجرة عن إرادة واقتناع !!

« ورسول الله مقيم بـ (مكة) يدعو إلى الله ، وكفـار (قريش) تظهر حسده وتُبدي صفحتها في عداوته وأذاه ، وتخاصم وتجادل وتردُّ من أراد الإسلام عنه ... فخرج ومعه زيد بن حارثة إلى (الطائف) في شوال سنة عشر من النبوة يلتمس من (ثقيف) النصر لأنهم كانوا أخواله ، فكلم سادتهم ودعاهم إلى نصره والقيام معه على من خالفه ، فردُّوا عليه ردّاً قبيحاً وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرجمونه بالحجارة حتى إن رجلي رسول الله لتدميان ، وزيدٌ يقيه بنفسه حتى لقد شجّ في رأسه شجاجاً ...

ثم عرض نفسه على (القبائل) أيام الموسم ودعاهم إلى الإسلام : بنو عامر وغسان وبنو فزارة وبنو مرة وبنو حنيفة وبنو سليم وبنو عبس وبنو نصر وثعلبة بن عكابة وكنـدة وكلب وبنو الحارث بن كعب وبنو عذرة وقيس بن الخطيم وأبو الحيسر أنس ابن أبي رافع ، وقد اقتص الواقدي أخبار هذه القبائـل قبيلة قبيلة ... وجعل يقول : من رجلٌ يحملني إلى قومه فيمنعني

حتى أبلغ رسالة ربي ، فإن (قريشا) قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي ؟ ...

وكان أحياء العرب يتحامو نملا يسمعون من قريش فيه : إنه كاذب ، إنه ساحر ، إنه كاهن ، إنه شاعر – أكاذيب يقترفونه بها حسداً من عند أنفسهم وبغياً ، فيصغي اليهم من لا تميز له من أحياء العرب ، وأما الألباء فإنهم اذا سمعوا كلامه وتفهموه شهدوا بأن ما يقوله حق وصدق .. »[1]

هكذا جرت الأمور قبل (الهجرة) ...

فماذا كان من شأن القوة الجديدة التي مالت بثقلها الى الميزان ؟؟

كيف أقبل أهل (يثرب) – الأنصار – على الدعوة الجديدة ؟؟

وكيف اختاروا طريقهم ؟؟

لنتتبع هذا العرض التاريخي الناطق ، كما ساقه المقريزي :

● « وكان مما صنع الله للأنصار – وهم الأوس والخزرج – أنهم **كانو يسمعون من حلفائهم بني قريظة والنضير – يهود المدينة – أن نبياً مبعوث في هذا الزمان ...**

« وكانت الأنصار – وهم الأوس والخزرج – **تحت البيت**

---

(١) المقريزي : إمتاع الأسماع ص ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٠ – ٣١

فيمن يحجه من العرب ، فلما رأوا رسول الله يـدعو الناس الى الله رأوا أمارات الصدق عليه لائحة ... »

هكذا تعرّف أهل (يثرب) على الطريق .... فكيف تقبّلوا الدعوة الجديدة ؟؟

● « وكان **سويد بن الصامت** ... وهو ابن خالة عبد المطلب ابن هاشم ... قد قدم مكة **فدعاه رسول الله وقرأ عليه القرآن**، فلم يبعد منه ولم يجب ، ثم قدم المدينة فقُتل في بعض حروبهم يوم بعاث) .

لسنا إذن أمام مظاهرة حماسة للترحيب بالدين الجديد .... ولسنا أمام منافسة تعلنها (يثرب) في وجه (مكة) ، فما أقوى مكة وقريش ؟

وإنما نحن أمام : (دعوة) ... و (قراءة) ... وبعد العرض والنقاش قد لا يبعد المرء ولكن لا يجيب !!

● **(ثم قدم أبو الحيسر أنس وقيل بشر بن رافع مكة في فتية من قومه بني الأشهل يطلبون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج** ، فأتاهم رسول الله **ودعاهم الى الاسلام** . فقال منهم إياس بن معاذ وكان شاباً حدثاً: ياقوم هذا والله خير مما جئتنا له ! **فضرب أبو الحيسر وجهه وانتهره فسكت** ، وقام رسول الله وانصرف القوم إلى المدينة ولم يتم لهم حلف ، فمات إياس مسلماً فيما يقال » .

ذ (يثرب) إذن هي التي تلتمس أسباب القوة من (مكـــة) وتنشد حلفها ونصرهـــا .... والدعوة الجديدة تعرض نفسها بطريقتها ، لكن يتيه (الفكر) في الزحام والركام بين الأهواء والعصبيات !!

● « ثم إن رسول الله لقي عند العقبـــة من منى في الموسم ستة نفر كلهم من الخزرج وهم يحلقـون رؤوسهم ، فجلس إليهم فدعاهم الى الله وقرأ عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعض : إنه الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنّــكم إليه ، فاستجابوا لله ولرسوله وآمنوا وصدقوا . وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث (عفراء) ، ورافع بن مالك وقطبة بن عامر (عمرو) ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله ... ثم رجعوا إلى قومهم بالمدينة ، فذكروا لهم رسول الله ودعـــوهم الى الاسلام ففشا فيهم ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله » .

بدأت الدعوة تصـــل إذن إلى داخل (يثرب) ... ولكن بالطريقة نفسها في العرض . وعدد المؤمنين لا يزال محدوداً ، إنه يتزايد بالتدريج ولكن لا يصل إلى انقـــلاب يخالف طبيعة الأمور ، ويخالف هدي الدين الجديد في مخاطبة العقول !

● « فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار إثنـــا عشر ، منهم تسعة من الخزرج :وهم أسعد بن زرارة، وعوف بن

عفراء ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر ، ومعاذ بن الحارث ، وذكوان بن عبد القيس ، وعبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة .. وثلاثة من الأوس : وهم أبو الهيثم مالك بن التيهان (ذو السيفين) ، وعويم بن ساعدة ، والبراء بن معرور .. فأسلموا .

وقد كان معه صلى الله عليه وسلم حينئذ أبو بكر وعليّ ، فبايعوه عند العقبة على الاسلام كبيعة النساء ، وذلك قبل أن يُؤمر بالقتال . فبعث معهم رسول الله مصعب بن عمير ، ويقال : وعبد الله بن أم مكتوم ، ليعلّما من أسلم القرآن ويدعوا إلى الله .

فنزلا بالمدينة على أبي أمامة أسعد بن زرارة ، فخرج بهما إلى دار بني ظفر واجتمع عليهما رجال ممن أسلم ، فأتاهم أسيد بن حضير الكتائب وسعد بن معاذ وهما سيدا عبد الأشهل ، فدعاهما مصعب إلى الإسلام ، فهداهما الله وأسلما ودعيا قومهما إلى الله ، فما أمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا وقد أسلموا — إلا الأصيرم عمرو بن ثابت بن دقش فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد ... ولم يزل مصعب بن عمير يدعو إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيه عدة مسلمون ، إلا بني أمية ابن زيد وخطمة ووائل فإنه تأخر إسلامهم . وكان مصعب يؤمّ بمن أسلم ، وجمع بهم يوماً وهم أربعون نفساً في هزم حرة

نقيب الخضمات – وبهـذا جزم أبو محمد بن حزم ، وعنـد ابن اسحق أن أول من جمع بهم أسعد بن زرارة » .

الدعوة تنتشر إذن في سير طبيعي : من فرد إلى فرد ، ومن بيت إلى بيت ... ويتكاثر المؤمنون ، ولكن في نطـاق يحصره العدّ والحصر والتسجيل اسماً اسماً .. وحين يستطيعون الاجتماع على الصلاة تنعقد جماعتهم بأربعين شخصاً !!

والدعوة تسير على منهجها الفكري الحرّ ولهـا (دعاتها) المتفرّغون لعرضها وبيانها . ولا يضير البيت والعشيرة أن يسلم جلته ويتخلّف واحد أو آحاد . . . كل يختـار مصيره كيف شاء !!

● « ثم كانت بيعة العقبة ثانياً ، وقد وافى الموسم خلق من الأنصـار ما بين مشرك ومسلم وزعيمهم البراء بن معرور ، فتسلل منهم جماعة مستخفين لا يشعر بهم أحـد ، واجتمعوا برسول الله في ذي الحجة وواعـدوه أوسط أيام التشريق بالكعبة ، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً ، وامرأتان : هما أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو وأسماء بنت عمرو بن عدي . .

« وجاءهم رسول الله ومعه عمه العباس وهو على دين قومه وأبو بكر وعليّ ، فأوقف العباس علياً على فم الشعب عيناً له وأوقف أبا بكر على فم الطريق الآخر عيناً له ، وتكلم العباس يتوثّق لرسول الله ... فتكلم رسول الله فتلا القرآن

ورغبهم في الاسلام ، **وشرط** عليهم أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم .

فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله وقال : والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ... **فاعترض الكلام أبو الهيثم ابن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالاً وإنا قاطعوها، فهل عسيت ان أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : أنتم مني وأنا منكم ، أسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم ...**

وتكلم العباس بن عبادة فأحسن ما شاء في شد العقد لرسول الله ، فقالوا : ابسط يدك ، فبايعوه ... كانت بيعتهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأزرهم .

وأقام صلى الله عليه وسلم منهم **اثنى عشر نقيباً هم** : أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمر بن خنيس ، وعبادة ابن الصامت — فهؤلاء تسعة من الخزرج . ومن الأوس ثلاثة : أسعد بن الحضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعه بن المنذر — وهو أبو لبابة وقيل اسمه مبشر بن عبد المنذر ويقال بل الثالث من الأوس مالك بن التيهان ...

وكانت هذه البيعة على حرب الأحمر والأسود ، **فلما تمت**

بيعتهم استأذنوا رسول الله أن يميلوا على أهل منى بأسيافهم ، فقال : لم نؤمر بذلك . فرجعوا وعادوا إلى المدينة » . [1]

فبيعة العقبة الثانية ما تزال تشهد عدداً محدوداً من مسلمي يثرب ، بلغ في غايته ٧٣ رجلا وامرأتين ... وهؤلاء حريصون على الحذر والتخفي ، والذي يُقبل على اعتناق هذا الدين لا بد أن يفعل بعـــد أن يكون قد فكـّر مرة أو مرتين أو مرات !!

ومن أهل (يثرب) من يتوجّس من قطعية العلائق والوشائج مع (مكة) ويخشى أن يعود الرسول بعد انتصاره لبلده وعشيرته ويترك يثرب تشقى بشارات الحرب !!

كل يفكر ويُقدّر ، ليختار عن اقتناع !!

فالصورة التي تبرز (يثرب) وكأنها قد انتفضت ما بين عشيّة وضحاها مؤمنةً مسلمةً ... صورة يعوزها كثير من الدقة !!

والصورة التي تجعل اعتناق الإسلام في «يثرب» مظـاهرة جماعية حماسية ... ليست هي الصورة التي تثبتها وقائـــع التاريـخ !!

والصورة التي تقيم من (يثرب) منافساً لـ (مكة) يسارع

(١) : إمتاع الأسماع ص ٣١ : ٣٧ .

للتصدى لها ، واحتضان الإسلام لمواجهتها ... هي إغراقٌ في الوهم والخيال !

إن المهاجرين ... والأنصار ... وكلّ السابقين إلى الإسلام: كم ضغطوا على أعصابهم وعقولهم ليفكّروا ... قبل أن يختاروا المصير !

« قل إنما أعظكم أن تقوموا لله مثنى وفرادى ... ثم تتفكّروا » .

« ما بصاحبكم من جنّة ، إن هو إلا نذيرٌ لكم بين يدى عذاب شديد » !!

* * *

والدولة الإيديولوجية الجديدة ترفض الولاء التقليدي : « إنا وجدنا آباءنا أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » ...

إنها تقوم على أمة العقل والفكر ، أمة الحجة والدليل ، أمة الحق وحده ... « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » !!

ولقد تلقّى محمد في (مكة) عرضاً مغريا حين خطر لقريش أن تعالجه ماديا ونفسياً : « إن أردت ملكاً ملّكناك علينا فلا نقطع أمراً دونك ، وإن أردت مالا جمعنا لك مالا حتى

تكون أكثرنا مالا،وإن كان الذي يعتريك رئيٌ من الجن التمسنا لك الطب ... » !

ولم تفلح المعالجة والمساومة ، لأن قريشا غفلت عن الأساس الجديد في الدولة الإيديولوجية الجديدة ، إن الإتّباع فرع عن الاقتناع : « قل إن كنتم تحبون الله فاتّبعوني يحببكم الله ... »

إنها « دولة » تعتز بحقيقة الولاء ... وهي من أجل ذلك تفتح الباب دائماً لكل عقل يقبل عن اقتناع ووعي ، ولا تغلقه قط أمام تيارات الفكر ، وتشمخ عملاقة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تعلن في ثقة موضوعية رائعة :

« يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم » « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » !

إنها الأصالة الإيديولوجية لدولة تقوم على « الفكر » وتقدس « الحرية » .. وحرية « الخروج » كحرية « الدخول » سواء بسواء !!

يقول الماوردي : « وإذا بغت طائفة على المسلمين وخالفوا رأي الجماعة وانفردوا بمذهب ابتدعوه ، فإن لم يخرجوا عن المظاهرة بطاعة الإمام ولا تحيّزوا بدار اعتزلوا فيها ، **وكانوا**

افراداً متفرقين تنالهم القدرة وتمتد اليهم اليد : تُركوا ولم يُحاربَوا وأجريت عليهم أحكام العدل فيما يجب لهم وعليهم من الحقوق والحدود . وقد عرض قوم من الخوارج لعلّي فقال: « لكم علينا ثلاث : لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ، ولا نبدؤكم بقتال . ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم معنا » فان تظاهروا باعتقادهم وهم على اختلاطهم بأهل العدل : أوضح لهم الامام فساد ما اعتقدوا ليرجعوا ، وجائز للإمام أن يعزّر منهم من تظاهر بالفساد أدبا وزجراً ولم يتجاوزه إلى قتل أوحدّ .. فإن اعتزلت الفئة الباغية أهل العدل وتحيّزت بدار من مخالطة الجماعة : فإن لم تمنع عن حق ولم تخرج عن طاعة لم يُحاربوا ، وإن امتنعوا حوربوا » !!

ويقول السرخسي في مبسوطه تعليقاً على كلام الإمام عليّ للخوارج : « .. فيه دليلٌ على أنهم ما لم يعزموا على الخروج فالإمام لا يتعرض لهم بالحبس والقتل ، وفيه دليلٌ على أنهم يُقتلون دفعاً لقتالهم حين يعزمون على القتال بالتجمع والتحيز دون أهل العدل » . وفي المبسوط كذلك إشارة لا تخلو من دلالة بالنسبة للردّة : « وبالإصرار على الكفر يكون -المرتدّ- محارباً للمسلمين ، فيُقتل لدفع المحاربة .

فإذا ثبت أن القتال باعتبار المحاربة ، وليس للمرأة بنية صالحة . للمحاربة ، فلا تُقتل في الكفر الأصلي ولا الكفر

الطارىء »[1] ...

« وقل الحقُ من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومـــن شاء فليكفر .. »

« ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمّةً واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك ، خلقهم .. »

« ومنهم من يؤمن به ، ومنهم من لايؤمن ، وربُّك أعلمُ بالمفسدين . وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ... إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ... ولكل أمّةٍ رسول ،فاذا جاء رسولهم ُقضى بينهم بالقسط وهم لا ُيظلمون ...

قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم

فمن اهتدي فإنما يهتدي لنفسه .

ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها .

وما أنا عليكم بوكيل » !!

(١) الماوردى الأحكام السلطانية ص ٤٧ - ٨. السرخسى : المبسوط ج . ١ ص ١٢٥ – ٢٦ ، ١١٠

دولة عالمية

والدولة الإيديولوجية بحكم طبيعتها الإنسانية المفتوحة ، دولة «عالمية» ...

والإنسانية اليوم تحلم بالدولة الإيديولوجية ، كما تحلم بالدولة العالمية !

الديمقراطية الغربية والعالم الحر من جانب ، والديمقراطيات الشعبية الاشتراكية من جانب آخر ... كلتاهما كتلتان ضخمتان من العالم ، تحاولان تحقيق الطابع الإيديولوجي والعالمي للدولة المعاصرة .

● **أما من ناحية الطابع الايديولوجي: فان الديمقراطية الغربية** تبرز فلسفتها بصفة خاصة في الجانب السياسي ، وهو جانب بطبيعته عرضة للتغير من وقت لآخر في الدولة الواحدة ، ومن دولة لأخرى بالنسبة لدول العالم .

ويكفي لتعزيز ذلك متـــابعة التطور الفقهي والتشريعي لموضوعات مثل : (حق الأنتخاب) و (فصل السلطات) ومـا يترتب عليه من علاقات بين رئيس الدولة ورئيس الحكومة ـ إن تعدّدا ـ والبرلمان ، والتعرف على مدى الحق المقرر للقضاء في الرقابة على دستورية القوانين ، وعلى (الحريات الفردية)والمدى المسموح للدولة بالتدخل فيه ، خاصة بعد أن أصبحت الدولة العصرية هي دولة الرخاء العام **Welfare state** وليست مجـرد دولة الأمن والسكينة وما إليها من معان تقليديـــة . على أن الديمقراطية تحاول أن تتعمق لتكون فلسفة في (التربيـــة) والسلوك بوجه عـــام ، ولها بالطبع انعكاسات في شتى مجالات نشاط (الإنسان) .

فإذا كان مفهوم الديمقراطية يشتمل قطعاً على طريقة صنع القرارات العامة « فإنه يشتمل في الوقت نفسه على اعتبارات أخرى كإقرار نوع من النظم الاقتصادية أو اعتناق فلسفة معينة إزاء الأديان . فالديمقراطية أكثر من مجـــرد شكل من أشكال الحكم ، إنها **جماع طريقة حياة المجموع أو الافراد** » [١] .

● **والطابع « الايديولوجي » الشامل أبرز في الدولة الاشتراكية :** وقيـام شطر اشتراكي في دول متعددة في أوربا وآسيا إعلانٌ لقيام عصر الدولة الإيديولوجية ، وإن كانت قد

---

١ ـ أوستن راني : سياسة الحكم ـ ترجمة د.حسن زنون ص ٢٦١ ـ ٢

دفعت الى ظهورها ظروف سياسية دولية : على أن هذا الطابع الإيديولوجي لم يجنب أهله الشقاق ، فثارت خلافات سياسية بين الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا ثم بين الاتحـــاد السوفييتي والصين ، وإن كانت هذه الخلافات قد أعطيت لوناً عقائدياً .

ولكن هذا الطابع الإيديولوجي يهتز كثيراً جداً حين يختنق بمسلّمات (الحتمية) التي تقوم عليهـا الفلسفة الماركسية ، إذ يتيه الاختيار الحر للفرد في زحام الطبقة .وحتمية الصراع ، ثم يضيـع الاختيار الحر للفرد مـرة أخرى تحت مطـارق (دكتاتورية البروليتاريا) !!

لقد أدان خروشوف عهد (ستالين) ، وأدانت المجـر بدورها عهـد (خروشوف) قبل أن تدينه روسيا أو الحزب !!!

● **وليس نجـاح الكتلتين أكبر في مجال تحقيق (الدولة العالمية) : (فالعالم الحرّ)** تنغصّه الحزازات الاميركية البريطانية والفرنسية والالمانية بل أحياناً اليونانية والتركية ؛ و (الوحدة الأوربية) تـكاد تتجمد هي الأخرى نتيجة تضارب هذه الأهواء !!

● **والدولة الاشتراكية « عالمية » من الناحية النظرية كما هي ايديولوجية :** فالاتحاد السوفييتي مثلا ليس دولة قوميـة etat national ، ولا يتطلّب حدوداً جغرافية معينة ، إذ لا

حدود له سوى اشتراكية فيدرالية سوفييتية مفتوحة لكل جمهورية اشتراكية حيث وجدت في أية بقعة من بقاع الأرض ، ما دامت ترغب في الانضمام والاندماج داخل الجمهورية الفيدرالية للاتحاد السوفييتي ... لذلك يقال إن للاتحاد السوفييتي نزعة عالمية **une vocation universelle** شأنه شأن « الاشتراكية » ذاتها . ومن هنا تتميز دولة الاتحاد السوفييتي – على حد تعبير الدكتور عبد الحميد متولي – بأن أساسها من الناحية القانونية ليس : (الإقليم) **le territoire** ، ولا (السكان) أي وجود أمة معينة ، وإنما تتكون الدولة السوفييتية من عدة أمم مختلفة وحّدت الاشتراكية فيما بينها ، ولقد قدم ستالين مشروع دستور ١٩٣٦ – الدستور الحالي الاتحاد السوفييتي – فوضفه بأنه (أممي) في أساسه .

ونحن نجد بعض الجمهوريات الفدرالية الستة عشر في الاتحاد السوفييتي قد أصبح لها شخصية دولية بمقتضى تعديل أدخل على الدستور سنة ١٩٤٤ . ومن هنا كان هناك ممثلون مثلاً لجمهورية روسيا البيضاء وجمهورية أوكرانيا في هيئة الأمم المتحدة بجانب ممثلي الاتحاد السوفييتي .

كما أعطي لكل من هذه الجمهوريات الفدرالية الستة عشر (حرية الانفصال) **droit de secession** عن الاتحاد السوفييتي وهذه الجمهوريات الفدرالية التي لها حق الانفصال ، كل منها بدوره ذو شكل فدرالي أيضاً مثل : روسيا ، أوكرانيا ،

روسيا البيضاء ، جورجيا ، أرمينيا ، استونيا ، لتوانيا ، تركانستان ... إلخ . ويميزها تكتل قومية من القوميات فيها ، وهذا شرط قيام جمهورية فدرالية داخل دولة الاتحاد السوفييتي الفدرالية . ويُذكر أن الاتحاد السوفييتي يضم ١٨٢ قومية تتكلم ١٤٩ لغة . [١] وجاء في خطاب خروشوف بأسوان في ١٩٦٤/٥/٢٦ طبقاً لما جاء في صحيفة « الأهرام » : « إن الاتحاد السوفييتي يتكون من شعوب كثيرة متعددة بينها القومية الروسية التي هي أكبر القوميات ، يليها شعب أوكرانيا ، بعد ذلك شعب ثروسيا ، أزبكستان ، جمهورية كازاخستان ، الجستان ، جورجيا ، أذربيجان ، أرمينيا ، تركانيا ، جورجيزيا ، أوستانيا ، ليتوانيا ، ولسدار ... وهذة فقط هي الجمهوريات الاتحادية ، واذا أخذنا بعين الاعتبار الجمهوريات ذات الحكم الذاتي والمقاطعات ذات الحكم الذاتي يبقى عندنا أكثر من ١٠٠ قومية ، ولكنهم يعيشون كقومية واحدة . ان في هذه الحقيقة قوة دولتنا ، إن فيها قوة ثورتنا العظيمة ... لقد أعطانا (لينين) شعار اتحاد الشعوب لا على أساس القومية بل على أساس العمل » .

ولكن العبرة في الطابع العالمي للدولة ــ شأن العبرة في طابعها الإيديولوجي ، هو في قيامه على الاختيار الحر ، وتحقيقه

---

١ ـ دكتور متولي : الأنظمة السياسية ص ٤٧١ : ٤٧٥

للمساواة بين جميع عناصر التركيب الاجتماعي للدولة أفراداً أو أمماً ، وبهذا وحده تختلف العالمية المعاصرة عن الامبريالية القديمة والاتحاد السوفييتي قد اكتفى بالنص في دستوره على نزعتـه العالمية ، ولكن لم يلتئم شمل الكتلة الاشتراكية في دولة واحدة ، بل انفجرت خلافات مذهبية خطيرة مع يوغوسلافيا وألبانيا والصين ، وتدخل الاتحاد السوفييتي عسكرياً لاخماد ثورة المجر .

وقد نشرت صحيفة « الاهرام » وجهة نظر رئيس تحريرها في نزاع الاتحاد السوفييتي والصين – وهو يساير ما ذهب اليه توينبي و كثيرون من أنه « صراع بين قوميتين وظروف كل منهما مع العلم بأن كلا البلدين اجتماعياً وسياسياً تحت حكم نفس العقيدة ونفس الطبقة . ان الصين تتهم الاتحاد السوفيتي بأنـه ينسى مسئوليات الثورة العالمية وينشغل برخائه ويتصرف داخـل الحركة الشيوعية باستعلاء الدولة الأكبر. والاتحاد السوفييتي يتهم الصين بأنها تريد منه أن يضحي بشعوبه في سبيل مطالبها في التنمية بل وفي مواجهة ذرية مع امريكا »[1]

أما « دولة الهجرة » التي قامت سنة ٦٢٢ م ، فكانت دولة (عالمية) كما كانت دولة (إيديولوجية) على أساس من الواقع التاريخي الأمين ...

---

١ ـ الاهرام ١٨-٨-١٩٦٧

● تضمنت «مهاجرين» من (مكة) ... لكن هؤلاء المهاجرين لم يكونوا من الضعف بحيث يكونون بجرد (لاجئين) ، ولا من القوة بحيث يكونون (فاتحين) !!

● وتضمنت «أنصاراً» من (يثرب) ... لكنهم في عـــددهم المحصور وقوتهم المحدودة لم يكوّنوا جبهة غالبة كاسحة ، بل كان يتربص بهم خطر مخالفيهم داخل مدينتهم وخطر مكـــة وقريش وقد آووا طريدها !!

ومن هنا وجد (المناخ) الصالح لقيام الدولة العالمية .. نتيجة حتمية لقيامها على الأساس الإيديولوجي .

واجتمع في ظل لوائها على نفس الحقوق والوجبات عرب أقوياء وضعفاء ، من قريش وغير قريش ،ومن الأوس والخزرج، كما اجتمع عليها غير العرب .. كان هنـاك أبو بكر وعمر وعبدالرحمن بنعوف وعليبن أبيطالب وعماربن ياسر وأبو هريرة وأبوذر الغفاريوسعد بن عبادة وسعد بن معاذ وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي ... الخ الخ .

« إن التعقيد المحيّر في المجتمع الإنساني ليس إلا انعكاساً للطبيعة الإنسانية .. ونتيجةً لذلك صار المجتمع الإنساني هدفاً لنزعتين متعارضتين في وقت واحد ، النزعـة الأولى نزعةٌ إلى التركيز Centripetal من أسرة مستقلة مقصورة على أعضائهـا في تكوينها إلى قبيلة ، ومن قبيلة الى دولة تقوم على مدينـــة

City - state أعضاؤها سكان المدينة Citizens ، ثم لا تــزال الدولة تتسع حتى نرى الإمبراطورية والكومنولث بل نرى المحاولات لإقامة نظام عالمي . وهذا أمر مقرر كظاهرة للتاريخ الإنساني ، في خط سيره الطويل الحافل ... أما النزعة الأخرى فهي نزعة الى التفرع والتوزّع Centrifugal ، فبعد القرابـة والاشتراك في الانتماء الى أسرة آدم وحواء أدّى الاختلاف في اللون واللغة والمواطن والسلالة وما إليها الى التبـاين والتباعد حتى دمغت قطرات غير قليلة من الدم المسفوك مجتمع النــوع الإنساني الذي يتقابل فيه الإخوة ... ومن المــؤسف أنه على الرغم من الفضل الكبير الذي أسدته العلوم والنظم المختلفة فإن الأقدمين عجزوا عن التخلص من الأفق الضيق الذي احتبستهم فيه حدود قوميتهم الجغرافية أو السياسية ، حتى أن الأديان القديمة نفسها تبدو وكأنها كانت قومية أكثر منها عالمية جاءت للإنسانية جمعاء !! ومع ذلك فإن هذه الأديان القومية القديمة قد دعت أيضاً في البداية الى المحبة والسلام ،وإن عقدة الاستعلاء على أساس من اللون أو المولد أو الجنس التي ما تزال قوة فعالة في أجزاء افريقية وأمريكا وأوروبا هي في نظري آثار الأجيال الوثنية وغـير الوثنيـة أكثر من كونها نتيجة لتقـاليد الأديان التي يعتنقها الناس هناك . وكان من حسن الحظ أن الإسلام تبرأ من أول يوم من حواجز الجنس والأرض واللسان ، واستهدف قيام الأخوة العالمية بين المؤمنين ... ولما كانت دعوة الإسلام لم تأت من البداية إلى بلد بعينه ، فإنها كانت خطوة

تقدمية الى الأمام نحو تحقيق ما بذلت المحاولات لتحقيقه من بعد، **وهو تدويل المجتمع الانساني...** وبجانب عالمية (الدعوة)، فان الإسلام أقام نظام (الحج) ونظام (الخلافة) من أجل تحقيق هذا الهدف »[١] .

* * *

ولننتقل إلى واقع التطبيق ...

إننا نرى «دولة الهجرة» دولة عالمية في عناصر تركيبها ووثائق تأسيسها ، كما هي عالمية في أصولها ومبادئها الفكرية العقائدية العامة .

وهذا كتاب رسول الإسلام الذي يحدد أسس الدولة الجديدة: كما أورده ابن هشام ...

● ورد في ديباجة الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتابٌ من محمد النبي ، بين **المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بها وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس ... »**

---

(١) دكتور حميد الله الحيدر أبادي : « دولة الإسلام والعالم » فصول من كتابه بالإنجليزية **Muslim Conduct of State** مترجمة للعربية ص ٦٥ : ٧٤ .

وفي هذا إعلان صريح للأساس الإيديولوجي العالمي للدولة الجديدة ... إنها أمة الفكرة والعقيدة « من دون النـــاس » ، باب الولوج إليها هو الإيمـــان ، ويستوي في الانتماء إليها أهل (مكة) وأهل (يثرب) ، قبيلة (قريش) وغيرها ممن تابع وجاهد .

والرباط العالمي لا يقطع الوشائج القريبة وما تعين عليه من تعاون أهلي وخدمات محلية : « المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عـــانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنـــو ساعدة ... وبنو الحارث ... الخ » .

● وعلى هذا الأساس الإيديولوجي العالمي في تكوين (الأمة) ، تمارس الدولة (سيادتها) و (سلطتها العليا) في الداخـــل والخارج :

« وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وان أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمنٌ مؤمنـــاً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وان ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ...

« وان سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمـــن في

قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم ، وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا . وان المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ... وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن ، **وانه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فانه قود به الى ان يرضى ولي المقتول** ، **وان المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الا قيام عليه .** وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يأويه ... **وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وان بينهم النصر على من دهم يثرب .** واذا دُعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم اذا دعوا الى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلَهم ... »

لقد وضح أن «دولة الهجرة» تمارس (سيادتها) و(سلطتها) على أساس من المساواة الشاملة والعدل المطلق .

● و «دولة الهجرة» لا تقتلع عصبيات الدم والأرض لتصطنع عصبية أخرى ... إنها تفتح أبوابها لمختلف الأديان ما برئت من نزعات العدوان :

« وإنه من تبعنا من **يهود** ، فإن له **النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم** ... وإن اليهود ينفقون مع

المؤمنين ما داموا محاربين ، **وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين** : لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وإن ليهود بني الحارث مثل ماليهود بني عوف وإن ليهود بني ساعدة... الخ... وأنه لا يخرج منهم أحد الا بإذن محمد ، وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم » .

● وأخيراً لا يفوت الكتاب النبوي أمر تفسير النصوص والتحكيم عند الخلاف :

« وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده ، فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه ... » [1] .

* * *

حقاً ... لم تكن « دولة الهجرة » دولة (قبيلة) ، أو دولة (مدينة) ... لم تكن دولة دم ولا أرض .

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر : أن الأرض يرثها عبادي الصالحون . »

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٤٧ : ١٥٠ (بتحقيق مصطفى السقا وزملائه) .

« وأورثنـــا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ، التي باركنا فيها ... »

« ونريـد أن نمن على الذين استـُضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ... »

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ، تخـافون أن يتخطـّفكم الناس

فآواكم ... وأيـّدكم بنصره ... ورزقكم من الطيبات

لعلكم تشكرون . »

« الذين إن مكناهم في الأرض :

أقاموا الصلاة ... وآتوا الزكاة

وأمروا بالمعروف ... ونهوا عن المنكر

ولله عاقبة الأمور » .

العقد الاجتماعي والتضامن الإجتماعي

لقد أجهد الفلاسفة ، المفكرون عقولهم ليقيموا شرعة العدل ، ويدفعوا أي تسلل لظلم ...

منهم من عمد إلى بحث (أصل نشأة الدولة) ليتوصل منها إلى مصادرة أي طغيان من الأساس واقتلاع جذور الاستبداد من المنبت . فذهب جان جاك روسو – أبو الديموقراطية – في كتابه المعروف (**العقد الاجتماعي**) **Le Contrat Social** الذين ظهر سنة ١٧٦٢ م ، إلى أن الدولة ترجع في أصل نشأتها إلى (**عقد**) اتفق الأفراد بمقتضاه على الخروج من تلك الحياة الطبيعية البدائية **etat de nature** التي كانوا يحيونها في البداية وكانت حياة عزلة وانفراد لا يخضعون فيها لسلطان عليهم وليست فيها قيود تقيد حريتهم ، كما اتفقوا على تكوين مجتمع سياسي يخضع لسلطة عليا ، أي أنهم « تعاقدوا على إنشاء دولة » . ويذكر روسو أن الجماعة نشأت في اليوم الذي أحس فيه الفرد البدائي **primitif**

أن حيـــاة العزلة أصبحت لا تكفل له سد حاجياته وإرضاء رغباته ، أي في اليوم الذي أصبح يحس فيه الحاجـة إلى معونة بني جنسه ، وذلك أصل نشأة الغريزة الاجتماعية المعروفـة عن الإنسان ، وكان هـذا شعوراً ملازماً للإنسان عنـــد نشأته ، وهكذا لم تكن حالة العزلة والانفراد سابقة على حياة الجماعة .

وهكذا يُرجـع « **العقـــد الاجتماعي** » نشأة الدولة إلى (الإرادة العامة للأمة) ، وبذلك تكون السيادة للأمـــة ولا تكون السلطة التي تمارسها الدولة مشروعة إلا حينما تكون وليدة تلك الإرادة العامة للأمة[١] .

وقد بحث الأستاذ الدكتور السنهوري طبيعة «عقد الإمامة» والواقعة القانونية المنشئة لاختيار الإمام بصفة خاصـة كما عرضه فقهاء الشريعة الإسلامية ، فقـــال عنه في كتابه Le Califat [ص ٩٤] إنه (عقد حقيقي) ... ونص عبارته الفرنسية :

« L'acte d'election est un veritable contrat, dont le but est d'investir le Calife de l'autorité supreme », «...du moment que le Calife élu est investi de pouvoir, en vertu de l'acte d'election qui est un veritable contrat entre lui et la Nation , il est en resulte que son autorité derive de cette dernière . »

فـ « عقد الإمامة » عقد مستوف للشرائط من وجهة النظر

---

(١) دكتور متولي . الأنظمة السياسية ص ٤٤ - ٥ .

القانونية ، فهو مبني على الرضا ، وغايته أن يكون المصدر الذي يستمد منه الإمام سلطته ، وهو تعاقد بينه وبين الأمة . وقد أشار الدكتور السنهوري إلى أن فقهاء الإسلام لم يبتعدوا عن نظرية (روسو) في « العقد الاجتماعي » ، فالحاكم يتولى سلطته من الأمة نائباً عنها نتيجة لتعاقد حر بينهما ، كما عرفوا نظرية السيادة كما ذهب إليها (روسو) ، مع ميزات خاصة في الفقه الإسلامي . يقول الدكتور السنهوري في كتابه Le Califat [ص ٥] :

Non, il n'est pas necessaire de lire Rousseau ou Lénine pour s'apercevoir que dans l'esprit de la theorie orthodoxe du droit musulman le Calife est le mandataire de la communauté musulmane .. etc ... »

ويعالج الدكتور ضياء الدين الريس هذه الحقيقة ، مبرزاً المدى الذي وصل اليه الفكر الإسلامي في أبحاثه القانونية بقوله: « هكذا قبل مجيء روسو وأتباعه بقرون عديدة ... وذلك أيضاً مع فارق ، فإن العقد الذي تكلم عنه (روسو) كان مجرد افتراض لأنه بناه على حالة تخيّلها في عصور ماضية سحيقة ولا يوجد عليها برهان تاريخي ، بينما (نظرية العقد الإسلامية) تستند إلى ماض تاريخي ثابت : هو تجربة الأمة في خلال العصر الذهبي للإسلام »[١] .

---

١ ـ دكتور ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الإسلامية ص ١٤٤ ـ ٥

يقول الإمام ابن حزم بالنص في كتابه (المحلى) :

« الإمام إنما جُعل ليقيم للناس الصلاة ، ويأخذ صدقاتهم ، ويقيم حدودهم ، ويمضي أحكامهم ، ويجاهد عدوّهم ... وهذه كلها **عقود** ، لا يخاطب بها من لم يبلغ ، أو لم يعقل ... » [1]

●

وعمد اتجاه ثان في الفقه الدستوري والفلسفة السياسية إلى بحث (أركان الدولة) ، مقرراً أن سيادة الدولة ترتبط ويجب حتماً أن ترتبط بمبادىء عليا ، فسلطة أو سيادة الدولة ليست مطلقة بل هي مقيدة ، وكان مرد هذه العناية في وضع حدود أو قيود على سلطان الدولة إلى الرغبة في تقديم ضمانات للأفراد ضد استبداد الحكام .

وإذا كنا نجد اتفاقاً بين فقهاء القانون العام في فرنسا على وجود هذه المبادىء العليا التي تقيد سيادة الدولة وسلطانها ، إلا أننا – كما سبقت الإشارة – لا نجد اتفاقاً على (ماهية) هذه القيود أو المبادىء العليا ، أو على (السلطة) التي تفرض هذه القيود أو المبادىء العليا ، أو على (قيمة) هذه المبادىء : هل

---

١ ـ المحلى جـ ١ ص ٤٦ .

هي قيمة قانونية تجعل للقضاء الحق في الامتناع عن تطبيق أي تشريع يخالفها وهي قيمة سياسية أو أدبية بحتة .

وقد استهدفت نظرية « القانون الطبيعي » و « المذهب الفردي » تقرير أصالة حقوق الفرد والتصاقها به منذ مولده وبذلك تعدّ الدولة مجرد خادمة للأفراد ، ولا يعدو ما يفرض على الأفراد من قيود ونظم مجرد وسيلة ، أما الغاية فهي كفالة حقوق الأفراد وحريتهم وتنمية شخصيتهم .

وتعرضت « النزعة الفردية » في صورتها المتطرفة إلى هجوم متطرف من الجانب الآخر ، فهاجمتها « المذاهب الاشتراكية » . يقول روباتشوف Roubachoff : « ما هو الفرد ؟ إنه جزء من مليون من جماعة تتكون من مليون » !!

على أن « النزعة الفردية » قد تعرضت لنقد كثير من أعلام الفقه الفرنسي أنفسهم ، مثل : ديجي Dugiut وكاري دي ملبرج Carré de Malberg . أما ديجي : فقد انتقد نظرياً أن ينسب للفرد حقوق سابقة على وجود المجتمع ، إذ أن فكرة الحق لا تظهر إلا في الجماعة حين يوجد صاحب الحق un sujet actif ويوجد من يُستعمل إزاءه أو في مواجهته الحق un sujet pessif ، ولقد كان الإنسان منذ القدم مخلوق اجتماعي. أما من الناحية العملية : فان السلطة التي تبين حقوق الفرد الطبيعية إما أن تكون للفرد أو للدولة ، مما سينتهي إلى الفوضى أو إلى الاستبداد . ثم إن المذهب الفردي يكتفي بفرض القيود

السلبية negativement على نشاط الأفراد حين يكون ذلك ضرورياً لحماية حريات المجموع ، ولكنه لا يفرض التزامات إيجابية obligations actives ، فلا يلزم الفرد أن يعمل شيئاً إزاء غيره من الأفراد ، كما لا يفرض التزامات إيجابية على عاتق الدولة مثل إتاحة وسائل التعليم والعمل وتحقيق التكافل الاجتماعي . وهكذا لا تعدو مثل هذه الآراء عن « القانون الطبيعي » و « المذهب الفردى » فلسفة جميلة يستوحيها المشرعون ، ليحدد القانون la loi بدوره شروط مزاولة تلك الحريات أو الحقوق الفردية وتنظيمها ويقرر الجزاء sanction على مخالفتها .

على أن (ديجي) لا يماري في أن المشرع في كل بلد من البلاد مقيّد بقانون أعلى منه ... حتى في بلد كانجلترا حيث يعد السلطان المطلق للبرلمان !! نجد قواعد عليا لا يقبل الضمير الانجليزي انتهاكها ولو على يد البرلمان !! هذا القانون الأعلى يطلق عليه ديجي : « القاعدة القانونية » la regle de droit ، وتحمل في طيها جزاءها الاجتماعي sanction sociale ، ذلك أنها وليدة رابطة « **التضامن الاجتماعي** » solidarité sociale وأعضاء المجتمع يستشعرون قوة هذه الرابطة بينهم ، ومن ثم لا يحجمون عن استنكار – بل ومقاومة – ما يوجه إلى هذه الرابطة من تجاهل أو عدوان !!

وهكذا جعل (ديجي) للقانون مصدراً خارجاً عن إرادة

الدولة une source ex!ra - statipue ليكفكف من غلوائها...
والمصدر الذي أسعفه هو ما أسماه : «القاعدة القانونية» — أو القانون الأعلى — التي وجدت قبل أن توجد (الدولة) ذاتهـا ، فهي وليدة الروابط الاجتماعية (التضامن الاجتماعي) ، أو وليدة حياة (المجتمع) الذي وجد قبل أن توجد (الدولة) ذاتها ، فهي لذلك أعلى من الدولة وطاعتها مفروضة على الدولة كما هي مفروضة على الأفراد !!

و «القاعدة القانونية» عند (ديجي) تتقرر حينما « يحس ضمير المجتمع إحساساً قوياً أنها ملزمة للدولة » ... أو بعبارة أخرى حينما يحس بأنها ضرورية لكفالة روابط (التضامن الاجتماعي) بين أعضاء المجتمع، وأنها تتفق مع الحق والعدل. وهي مرنة متطورة متغيرة Variable' changeable ، وليست مثالية ثابتة Ideal كالقانون الطبيعي .. لكنها قديمة ، أقدم من الفقه والقضـــاء والعرف .

وروابط «التضامن أو التعاضد الاجتماعي»
InterdePndance Sociale
التي تتولد عنها القاعدة القانونية أو القانون الأعلى : هي ظاهرة واقعية un fait d'ordre rèel . فلأفراد المجتمع حاجـــات مشتركة لا يستطيعون قضاءها إلا عن طريق حياة الجماعة : وهذه تكون روابط التضامن بالتشابه Solidarité par similitude .
ثم إن هؤلاء الأفراد كفايات مختلفة فهم لا يستطيعون قضـــاء

حاجاتهم إلا عن طريق تبادل الخدمات : وهذه تكون روابط التضامن عن طريق توزيع أو تقسيم العمل

Solidarité par divisions du travail .

والجزاء **Sanction** بالنسبة « للقاعدة القانونيـــة » عند (ديجي) :ليس من الضروري أن يكون مباشراً عن طريق القهر **contrainte** ، ويكفي أن يوجد ثمة ضمان

il suffit qu'elle soit une regle guarantie

فالدولة — وهي التي تحتكر سلطة القهر ـ لا يمكن أن تزاول هذه السلطة بنفسها ضد نفسها. ويكفي ضماناً «القاعدةالقانونية» عند (ديجي) : قوة «الرأي العام» ، فحين تنتهك تلك القاعدة يحدث رد فعل في الشعور العام **Reaction social** من شأنه أن يؤدي عادة بالمجتمع إلى تدوين تلك القاعدة ، ممـــا يعد إقراراً لقاعدة موجودة لا إنشاء لقاعدة جديدة . ونحن نقرر وجـود القانون العام مثلاً وهو القانون المتعلق بالدولة ، وإن لم توجد ثمة قوة للتنفيذ القهري على الدولة .

لقد أتعب الفقيه الكبير عقله وأكد فكره ، ثم انتهى بعد عناء إلى أن القاعدةالقانونية مسألة ضمير **affair de conscience** !! فتاريخ ميلادها « حين يحس ضمير المجتمع إحساساً قوياً أنهـــا ملزمة للدولة » !! فما السبيل إلى تحديد هذا الإحساس وقياس درجته ؟؟ وما السبيل الى تبين أنه ارتفع الى مستوى التعبير عن المجتمع وليس مجرد تقدير خـــاص لفرد معين **l'appreciation subjective de chaque individu**

والقول بأن « القاعدة القانونية » تستند إلى روابط (التضامن الاجتماعي) ، وأن هذه الروابط وُجدت قبل الدولة فهي أعلى من الدولة، محاولة ذهنية لإعلاء بعض المبادىء لتكون حداً أو قيداً لسيادة الدولة . وقد سبق (روسو) إلى شيء من ذلك في « العقد الاجتماعي » ، على اختلاف في السبيلين . وإذا كان (ديجي) قد جعل (سيادة الدولة) مقيدة بضرورة احترام « القاعدة القانونية » ، فإنه لم يحدد تلك القاعدة القانونية بصورة بينة تنأى بها عن مواطن الجدل والشكوك ، كما أنه لم يبين سلطة منظمة ينتهي إليها تحديد تلك القاعدة القانونية قانعا بأن القاعدة القانونية موجودة بحكم الأمر الواقع وكفى ، وأن جميع الدول المتمدينة الحديثة قد استهدفت نظمها السياسية على اختلافها غاية حقيقية واحدة هى احترام تلك « القواعد القانونية » أو المبادىء العليا بتقرير ضمانات تحمي الفرد إزاء سيطرة الدولة [١] .

●

وشريعة الاسلام تعلي « مبادئها الإيديولوجية العامة » لتجعلها حاكمة على كل تشريع ...

ولا يشق على الفقه الإسلامي تقرير أساس هذا العلو ، أو

---

١ ـ دكتور متولي : الأنظمة السياسية ص ٢١ : ٣٤

مصدره ، ولا تحديد ماهية هـــذه المبادىء العليا ، أو الجزاء المترتب على إصدار تشريع مخالف لها ...

ذلك أن (دولة العقيدة) تقـــوم على أن السلطة الحاكمة العليا هي (الله) ... هي للقوة المحايدة التي تقـــرر المبادىء والموجهات العامة ، إذ هي لا تميل مع فرد أو جماعـــة ، ولا تنحاز لحاكم أو محكوم ...

يقول تعولى :

«يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولي الأمر منكم ، **فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ،** إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلـــك خير وأحسنُ تأويلا »

ويعلق الإمام (ابن القيم) على الآية الكريمة فيقول :

« فأمر الله بطاعته وطاعة رسوله ، وأعاد (الفعل) إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب ... **ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالا ، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول ، ايذاناً بانهم انما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول »** (١)

وهذه بعض المبادىء والموجّهات العـامة للتشريـــع الإسلامي :

---

(١) إعلام الموقعين : جـ ١ ص ٣٩

● « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل : **يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم** »

● « إن الله يأمر : **بالعدل والاحسان ، وايتاء ذي القربى**... وينهى عن : **الفحشاء ، والمنكر ، والبغي** »

● « يأيها الذين آمنوا ادخلوا في **السلم** كافة »

● «إن الله يأمركم أن تؤدوا **الأمانات** إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا **بالعدل** »

● « يأيها الذين آمنوا أوفوا **بالعقود** »

● «لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر : **بصدقة ، أو معروف ، أو إصلاح بين الناس** »

● «يأيها الذين آمنوا **لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم »

● «**وأحل الله البيع وحرم الربا** »

● « ما أفاء على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، **كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم** »

- **«ولا يضار كاتب ولا شهيد»** ...
- « **ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة»** ... **«فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه »** .. إلخ إلخ .
- **«لا ضرر ولا ضرار** ... » ...
- « ادرأوا الحدود بالشبهات ...» **«رفع عن أمتي : الخطأ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه »** ... إلخ إلخ .

ويقول الإمام (ابن القيم) :

« ... إن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ــ وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض ، **فاذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلة العدل وأسفر صبحه بأي طريق كان فثمّ شرع الله** ودينه ورضاه وأمره . والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر ، بل بيّن بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط ، فأي طريق استُخرج بها الحق وعُرف العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها [١] . »

ويقول الأستاذ خلاف، أخذاً مماذهب إليه الإمام (الشاطبي) في (الموافقات) :

---

(١) إعلام الموقعين : جـ ٤ ص ٢٦٧ : ٩

« من استقرأ الأحكام الشرعية في مختلف أبوابها يجزم أن الغاية فيها : **تحقيق مصالح الناس والعدل بينهم** . ومصلحة أي فرد أو مجتمع تتكون من عناصر ثلاث : من أمور **ضرورية** لا تقوم حياة الفرد والمجتمع إلا بها، ومن أمور **حاجية** لا تتيسر الحياة وتخلو من العسر والحرج إلا بها، ومن أمور **كالية أو تحسينية** لا تكمل الحياة ويتم نظامها إلا بها. وقد كلفت الشريعة الإسلامية كل واحد من العناصر الثلاثة بنوعين من الأحكام : **أحكام توجده وتحققه ، وأحكام تصونه وتحفظه** ، وبهذا كفلت مصالح الناس .

● **فالدين** : من الضروري للحياة ، وقد شُرعت أحكام الإيمان والعقائد والعبادات لتكوينه وإقامته ، وشُرعت أحكام الجهاد والدعوة والارشاد لحفظه وحمايته .

● **والنسل** : من الضروري للحياة ، وقد شُرعت أحكام الزواج لإيجاده ، وشُرعت العقوبات على قتل النفس وتحريم الإلقاء بها إلى التهلكة والأذى والضرر لحمايته ودفع العدوان عنه .

● **والمال** : من الضروري للحياة ، وقد شُرعت المعاملات والمبادلات وطرق السعي لكسبه وتحصيله ، وشُرعت العقوبات على السرقة والغصب وإتلاف مال الغير لحفظه وصيانته .

وهكذا ... العرض ، والعقل ، وكل ضروري للفرد والأمة ، شُرعت له في الإسلام : أحكام توجده وتحققه ، وأحكام تحفظه وتكفل بقاءه .

● وكما كفل الضروريات بهذه الأحكام كفل الحاجيات **والكماليات** : بتشريع أنواع عدة من المعاملات والمبادلات ؛ وبالترخيص للمكلفين بأحكام فيها تخفيف عنهم إذا شقّت عليهم العزيمة ، وبإباحة المحظورات عند الضرورات أو الحاجات ، وبتشريع آداب المعاملة وأحكام الطهارة وكثير مما يقتضيه الكمال والمروءة .

« فما شرع الله حكماً في الإسلام إلا : لكفالة أمر ضروري للناس ، أو لرفع الحرج عنهم ، أو لتكميلهم وتجميل حياتهم ... وهذه هي عناصر مصالحهم . ولذا قال الإمام الشاطبي في الجزء الثاني من كتاب (الموافقات) بعد أن استقرأ الأحكام الشرعية وحكمها في مختلف الأبواب : إن الظواهر والعمومات والمطلقات والمقيدات والجزئيات الخاصة في أعيان مختلفة ووقائع مختلفة في كل باب من أبواب الفقه وكل نوع من أنواعه يؤخذ منها أن التشريع دائر حول حفظ هذه الثلاث التي هي أسس مصالح الناس . وقال في عدة مواضع : إن أحكام الشريعة ما شرعت إلا لمصالح الناس ، وحيثما وُجدت المصلحة فثم شرع الله . وقرر أن كل حكم شرعي : فيه حق لله من جهة وجوب العمل به ، وفيه حق للعبد من جهة أنه ماشُرع إلا لمصلحة . وصدر المشرعون المسلمون عن المصلحة في كثير من تشريعهم .

« **والعدل** بين الناس هو الغاية المقصودة من الشريعة الإسلامية ولهذا أمر الله المسلمين أن يقوموا بالقسط ولو على أنفسهم أو

الوالدين والأقربين ، وأمر بالعدل ولو مع العدو ، وجعل العدل في الحكم وفي القول مفروضاً في كتاب الله . ولقد أفتى بعض العلماء المسلمين بأن الكافر العادل أفضل من المسلم الجائر ، لأن الأول لنا عدله وعليه كفره ، والثاني له إسلامه وعلينا جوره . وقالوا : إن الله يقيم الدولة بالعدل ولو على كفر ، ولا يقيمها بالظلم ولو على إسلام . ولذا قال الإمام ابن القيم : (إن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط . فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق فثم شرع الله ودينه) .

« وعلى ضوء الغاية من تشريع الأحكام الشرعية استمد علماء التشريع الاسلامي من نصوص الشريعة وروحها ومعقولها مبادىء تشريعية عامة تعتبر الدستور التشريعي الذي يبني عليه المشرّع تشريعه والقاضي قضاءه ، **وكل مبدأ من هذه المبادىء تمت بسبب صحيح الى تحقيق مصالح الناس واقامة العدل بينهم ، وتؤخذ منه أحكام الوقائع المختلفة في مختلف البيئات والعصور ...**

● **من هذه المبادىء المبادىء الخاصة برفع الضرر** : التي أساسها قوله صلى الله عليه وسلم : (لا ضرر ولا ضرار) ، وهي : الضرر شرعاً يزال ، الضرر لا يزال بالضرر ، يُرتكب أخفُ الضررين لاتقاء أشدهما ، يُرتكب الضرر الخاص لاتقاء الضرر العام ، دفع المضار مقدمٌ على جلب المنافع ، الضرورات

تبيح المحظورات ، الضرورات تُقدَّر بقدرها .

● **ومنها المبادىء الخاصة برفع الحرج** : التي أساسها قوله تعالى : (مـــا جعل عليكم في الدين من حرج) ، وهي : الحرج شرعاً مرفوع ، المشقة تجلب التيسير ، الحاجـــات تنزل منزلة الضرورات في إباحة المحظورات .

● **ومنها المبادىء الخاصة بسد الذرائع** : التي أســـاسها قوله صلى الله عليه وسلم : (من حام حول الحمى يوشك أن يقـــع فيه) ، وهي : مـــا يُفضي إلى المحظور فهو محظور ، ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ما ضر كثيره حُرِّم قليله .

● **ومنها المبادىء الخاصة بالبراءة الأصلية** : التي أساسها قوله تعالى . « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » وقول الرسول : « كُل مولود يُولد على الفطرة » ، وهي : الأصـــل في الأشياء الإباحة ، الأصل في الإنسان البراءة ، ما ثبت باليقـين لا يزول بالشك . . .

إلى غير ذلك من المبادىء التشريعية التي هي دستور الأحكام الشرعية ، والتي لا يرتاب منصف في أنها مبادىء منطقية عادلة لا تتنافى مع أي مبدأ تشريعي عادل ، وقد وسعت مصالح على اختلافهم »[١] .

---

(١) خلاف : أبحاث مؤتمر رابطة الإصلاح الاجتماعي في مؤتمر (الإسلام=

هذه هي الفلسفة التشريعية « للإيديولوجية الإسلامية » في مبادئها العامة وموجّهاتها العليا ...

مصدرها : « الله » الذي له الحكم والأمر ، وبيانها : (الوحي) في الكتاب والسنة ... فهي القانون الأعلى لكل من تقبّل عقيدة الإسلام واقتنع بمنطق الإيمان !!

« فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليما » .

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبّع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك »

« فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبّع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ... الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

= والإصلاح الاجتماعي) سنة ١٩٣٨ ، منشورة بعدد خاص من مجلة وزارة الشؤون الاجتماعية ، للتفصيل انظر خلاف : علم أصول الفقه ص ٢٣١ : ٢٤٧ ، أيضاً الشاطبي : الموافقات جـ ٢ .

هجـــرة ... إلى العقيدة

هكذا قامت «دولة الهجرة» على الفكر والاختيار الحر... وكانت دولة (ايديولوجية) ... (عالميـة) ... ذات طابع فذ في التاريخ .

ذلـك أن حجر الأساس في الدين نفسه — على اختـلاف رسالات الأنبياء وشرائعهم — إنما يقوم على أصوله الاعتقادية... وهذه لا تُقبل إلا على أساس الفكر والاختيار الحر .

إذ كل من قلد في التوحيد كأن إيمانه لم يخل من ترديد

«ويبدو أن عرضنا للدين، حتى في صورته المعاصرة ، لا يخلو من قصور ...

فقد فتنتنا (الإزم ism) ... أو المذاهب والنظم التي تزجم العالم (مما تنتهي مصطلحاتها عادة بهذه الأحرف) ، فأحببنا أن

نعرض الإسلام في صورة نظام سياسي أو نظام اجتماعي أو نظام اقتصادي !

وغفلنا عن أن لكل نظـــام أساسه الفلسفي : للشيوعية فلسفتها في المادية الجدليـــة ، وللديمقراطية فلسفتها في الحرية الفردية ... ومن هنا ينبغي أن نعطي جـــد اهتمامنا لعرض الأساس الفلسفي للإسلام ، متمثلاً في عقيدته (وأصوله الفكرية الكبرى) ...

● والامتحان الحقيقي الذي يواجه الدين عامة في عصرنا : هو في أساسه العقيدي .

● والاحتياج الحقيقي الذي يلحّ على الإنسان في عصرنا : هو في الجوعة الروحية النفسية .

● والهدف الحقيقي الذي توخّته الديانات: هو في إرساء أساس العقيدة لتحقيق سعادة الإنسان .

« فالمذاهب والنظم الوضعية العصرية ، قد حققّت – على اختلاف مناهجها وأساليبها – كثيراً من مطـــالب الإنسانية المادية والتنظيمية ...

وبقي الفراغ المهول ... يطل من وراء (المادة ، ومن وراء (التنظيم) !!

«وتراقصت (المادة) نفسها باضطراب نفوس العاملين فيها...

واهتز التنظيم من جراء أزمات الأفراد والجموع !!

« ومعجزة النظام) في الدين ... هي في الأصول العقيدية التي يُرسيها في أعماق النفوس لتكون مصدراً دائماً ورصيداً متجدداً للنظام !

« ونظرةٌ إلى رسالات الله المتتابعة، ترينا أن اختلاف شرائع الله على مر العصور لم تحجب المجتمعات عن الإفادة من حكمة الدين الأساسية وأصله الجامع ... من (العقيدة) ... فعن طريقها ، (يسمو الدين بدوافع الخضوع في نفوس البشر ، حتى لا يُساء استخدامها في الانقياد للناس والأهواء ، ويحكم صمامات النفس بعروة العقيدة الوثقى فلا يأس ولا بطر ، وبصرف مشاعر الخوف والرجاء إلى من لا يتجبر بها بغير الحق إذ هو غني عن العالمين) !

« ونظرة إلى تراث الفقه الإسلامي : تدلنا على مدى اختلاف النتائج التي توصّل إليها الفقهاء وفق مناهجهم في الاستدلال ، ومدى اختلاف الأحكام التي تنتسب كلها إلى الاسلام ... فرُبَّ دم يهدره فقيه ويحقنه آخر ورُبَّ مال يحله فقيه ويحرّمه آخر ، ورُبَّ علاقة يجيزها فقيه ويحظرها آخر ... والترجيح بين هذه الآراء اجتهادي واحتمالي ... ومعجزة الدين وآثاره الفكرية النفسية الإصلاحية الكبرى قائمة سواء أطبقَ هذا الرأي الجزئي في فرع من الفروع أو ذاك »!! (١)

---

(١) من مقدمة كتاب : (الدين في موقف الدفاع) ـــ للمؤلف

إننا نخطىء كثيراً حين نقدّم الدين إلى الناس مجموعــة من شعائر العبادة ... أو تفاريق من أحكام الحلال والحرام ... !!

إننا نسجن أنفسنا في ضيق من الرموز والمحـــارم ... أو (التوتم والتابور) totem. taboo التي أفاض الحديث في شأنها دور كايم وفرويــد ، وعلماء الاجتـــماع والنفس – كل على طريقته !!

ولكن (الدين) في أصله وحقيقته ... أرحب وأعمق :

« كما أودع الله سرّ الخلق في قوله (كن) لينبثق من هذه الكلمة كون وحياة ، ثم لا يفتأ الكون يتطور ولا تنفك الحياة تتدفق وفق سنن متعددة متباينة متقابلة متكاملة ...

« وكما أودع الله سرّ الحيـــاة في النواة والبويضة والبيضة لتتولد عنهـــا كائنات لهـــا أجهزتها وأعضاؤها ووظائفها ، ثم لا تلبث تتنقل بين دور ودور حتى تترك وراءها سر الحياه في حلقة جديدة من سلسلة الأحياء ...

« وكما ينبسط نطاق المخلوقات التي انطلقت عن إرادة الخالق الكائنة في كلمة من حرفين ... وكما ينفسح مجال الحيـــاة الذي تمخضت عنه أصول الحياة ...

« كذلك يكون (الدين) ... إيمان بالله يعمر دنيا الناس ، وعقيدة تخلق حضارة ، وعبادة تربي مجتمعـــا ... وكما يتسع امتداد الخلق والحياة في الزمان والمكان،فلا يأخذ من سر الخلق

وبذرة الحياة إلا القوة الدافعة والخصائص الكامنة دون الشكل الظاهر والمظهر الخارج ..

« كذلك (الدين) : انطلاق للحيـــاة على الأرض ، يشع الدين خلاله على النفس والعقل والسلوك والتشريـــع ، دون أن ينحصر في مجموعة من الكلمات والتعاليم والمظاهر الجـــامدة المتناهية التي تضمها الأوراق وتتناقلها الشفاه !!

« إن (الدين) يخلق حضارة في كل أرجاء الحياة ...حضارة تتجدد وتتطور كلما تتابعت الأجيال وتطورت البيئـــات ، لا مجرد رسوم وتعابير هامدة تكرر نفسها دون جديد !!

« هكذا يخلد (الدين) في مصادر قوته ، دون أن تتوقف صور هذه القوة، ولو حبست صورة القوة في مصادرها لتجمدت فلم يعد جديد !!

« إنها الحياة ... نمو ورقي ... تطور وامتداد .

«يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم،وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » ...

«و(موعظة الله) ليست هي الكلمات المحدودات التي تحتويها دفتا المصحف، وإنما هي الحقيقة الهائلة التي تودعها هذه الكلمات في الفكر الإنساني ... و(شفاء الصدور) ليس باللحظـــات المعدودات التي تومض فيها ألفــاظ القرآن أمام الأبصـــار أو الأسماع ، وإنما هو بتربية النفس الـسوية البريئة من الذهـــان

والعصاب والفصام والعقد والعلل والأسقام ... و (الهدى) (الرحمة) كلمتان كبيرتان لا يعقل أن ينحصرا في شعارات أو شعائر ، إن الهدى نور يضيء كل فخ في كل وقت ، والرحمة نعمة سابغه تستغرق كل بني الإنسان في كل بقاع العالمين !

« (الدين) موعظة العقل : لينطلق العقل المؤمن من بعد فيبدع إبداعه الخلاق ، و(الدين) شفاء النفس حتى لا تعوق أزماتها قوى الإنسان الراكضة في الآفاق ، و (الدين) هدى ورحمة للفرد بكل طاقاته وللمجموع البشري بكل أفراده ، حتى لا يستنزف الصراع المتخبط دون طائل، قطرة من دم أو نفساً من حياة أو ذرّة من مادة !

« إن (الدين) شحنة حياة ،تختلط بالنفس والحس ، والفكر والوجدان ... وتنمو في البيئة النفسية والعقلية للفرد أولاً ، ثم تهيج فتطفر إلى رحاب الأرض .....

« فأين طلاب (الدين) ... من حقيقة (الدين) ؟؟

«خلطوا بين مصدر الدين الخالد ، وبين ثماره النامية وآثاره المتجددة ... فصارت لديهم صورة واحدة معادة مكرورة لكتاب يضم نيفا ومائة سورة بجانب كتاب آخر لآلاف الأحاديث النبوية ، ولم تتغير صورة الكتابين ولن تتغير — اللهم إلا أن يطبعا اليوم (بالأوفست) أو (اللينوتيب) بعد أن كانا يُنسخان على ورق منشور . لكن ينبغي أن يكون للكتابين

في كل جيل، بل في كل فرد ، آثار في حياة الفكر وفي حياة العمل!

و (الدين ، لو تعلمه الناس كما نزل ، لبدؤوا بالعقيدة أولاً ، فهي الأساس الذي إن تقبلوه أفادوا من الشعائر وتشربوا الشرائع واعتادو على الآداب ... العقيدة هي التي تبنى في صميم الوجدان : أخلاق الفكر وأخلاق النفس وأخلاق السلوك ... والعقيدة في الإسلام أولها المعرفة : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » «إنما يخشى الله من عبادة العلماء » !

«لكننا حين نتعلم الدين ونعلمه، نبدأ حيث تأخر الوحي... نبدأ بـ (الشعائر) التي تأخر فرضها حتى الإسراء ، أو بـ (الشرائع) التي لم تنزل إلا بعد حادث الهجرة ... فيفتقد تفكيرنا المنافذ ، ولا تتفاعل مع نفوسنا الأصول ... وتحجزنا عن الانطلاق أسوار وأشكال وألفاظ ، إما أن نحطمها فنحطم الدين معها - فهذا ما فهمناه ، وإما أن نسجن داخلها صاغرين !!

« فلنأخذ من الدين دفعة الحياة ... ثم نخوض به واقع الحياة [1] !!

●

إن « عقيدة الفكر » و « دولة الفكر » هما حلم الإنسانية

---

١ - من كتاب (الدين للواقع) للمؤلف - فصل : (ينابيع وأوعية)

الكبير الذي طالما تنهد حنين العالم المعاصر إليه ...

في خلال الربع الأول من هذا القرن ظهر كتاب (ألبرت شفيتزر) الطبيب الفيلسوف الألماني : « فلسفة الحضارة » ، وقد تراوحت تواريخ إعداد فصوله ما بين عامي ١٩١٤ ، ١٩٢٣ م ... لنستمع إليه يقول :

« .. الخاصية المروعة في حضارتنا هي أن تقدمها المادي أكبر بكثير جداً من تقدمها الروحي ، لقد اختل توازنها ! فالاكتشافات التي جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل قد أحدثت ثورة في العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض ، وبين الجماعات ، وكذلك بين الدول ، فأثرت معارفنا وازدادت قوتنا إلى حد لم يكن في وسع أحد أن يتخيله . وبهذا أصبحت أحوال الناس المعيشية أفضل من عدة نواح ، لكن حماستنا للتقدم في المعرفة وأسباب القوة التي بلغناها جعلتنا نتصور الحضارة تصوراً ناقصاً معيبا ، فاننا نغالي في تقدير انجازاتنا المادية ولا نقدر أهمية العنصر الروحي في الحياة حق قدره !!

« ولكن الحقائق بدأت تدعونا إلى التفكير ... إنها تقول بلسان حاد : إن الحضارة التي لا تنمو فيها إلا النواحي المادية ، دون أن يواكب ذلك نمو متكافىء في ميدان الروح ، هي أشبه ما يكون بسفينة اختلت قيادتها ، ومضت بسرعة متزايدة نحو

الكارثة التي ستقضي عليها !! ذلك أن الطــابع الجوهري للحضارة لا يتحدد بانجازاتها المادية ، بل باحتفاظ الافراد بالمثل العليا لكمال الانسان وتحسين الاحوال الاجتماعيــة والسياسية للشعوب وللانسانية في مجموعها ، وأن تكون عادات التفكير خاضعة لهذه المثل بطريقة حية ثابتة . فحينما يعمل الأفراد على هذا النحو كقوى روحية تؤثر على ذواتها وفي المجتمع ، يمكن حل المشا كل التي تثيرها وقائــع الحيــاة ، والوصول إلى تقدم عام خليق بالتقدير من كل ناحية . وليس العنصر الحاسم في تقويم الحضارة ما أنجزته من أعمال مادية ، بل يتوقف مصيرها على كون (الفكر) يسيطر على الأحداث أولاً يسيطر .. والثورة في أسباب الحياة بين الأفراد والجماعــات والشعوب وهي تساير موكب التقدم في الإنجازات الماديــة ، تقتضي من عادة التفكير عند الجماعة المتحضرة مطالب أسمى إذا كان عليها أن تُبين عن تقدم حقيقي في اتجاه الحضــارة الرفيعة ، كما أن زيادة سرعة السفينة تفترض زيادة المتانــة في آلات القيادة والتوجيه ...

« وأبرز الأخطار التي تجرها الإنجازات المادية على الحضارة هو أن الناس يصبحون غير أحرار ، نظراً إلى الثورة الحادثة في ظروف الحياة ! فأنماط الناس الذين كانوا من قبل يزرعون أرضهم بأنفسهم يصيرون مجرد أجراء في المصانع ، والعــمال اليدويون والتجار المستقلون يصيرون مجرد مستخدمين ، وبهذا

يفقدون الحرية الأولية التي يتمتع بها الانسان الذي يسكن في منزله ويتصل مباشرة بالأرض أمه . وفضلاً عن هذا يفقدون الشعور الواسع المستمر بالمسئولية الذي يوجد عند أولئك الذين يعيشون من عملهم المستقل ...

« والمنظمات الاقتصادية والاجتماعيـــة والسياسية تزيد سيطرتها علينا بقدر ما يزداد الإحكام في تنظيمها ، والدولة بتنظيمها المتزايد القاسي تملك زمامنا امتلاكا يزيد على الأيام صرامة وشمولاً . وهكذا نجد أن (الوجود الفردي) قـــد تضاءلت قيمته في كل اتجاه ، وازدادت الصعوبة في أن يكون المرء ذا شخصية ! ذلك أن تقدم الحضارة (الخارجية) يجر وراءه هذه النتيجة : هي أن الافراد على الرغم مما يحصلون عليه من مزايا يُضارُّون من نواح كثيرة مادياً وروحياً في طاقتهم على الحضارة !!... فالإنجازات المادية لا تصبح حضـــارة إلا بمقدار ما تستطيع عقلية الشعوب المتمدينة أن توجهها وجهة كمال الفرد والجماعة » .

« إن توكيد العالم والحياة قد تزعزع عندنا ، فلم يعد الرجل العصري يشعر بدافع إلى التفكير في المثل العليا للتقدم والسعي إليها ، وكيف نفسه إلى حد بعيد مع النزعة الواقعية . إنه أشد استسلاماً مما يعترف، وفي ناحية من النواحي نراه يصرّح بالتشاؤم ذلك أنه لم يعد يؤمن بالتقـدم الروحي والاخـــلاقي للناس وللإنسانية ، مع أن هذا التقدم الروحي والأخلاقي هو العنصر

الجوهري في الحضارة .. وهذا سببه طابع نظرتنا الكونية التي تعاني أزمة منذ منتصف القرن التاسع عشر ... وإنا لندخل تدريجياً في حالة ليس فيها أية نظرة كونية على الأطلاق !!

« والمسألة الكبرى عندنا إذن : **هي ما اذا كان علينا أن نتخلى نهائياً عن النظرة الكونية التي تحمل في داخلها المثل الاعلى لاكال أفراد الانسانية بعامة – تحمله بكل قوته ، وكذلك للنشاط الاخلاقي** . فإذا نجحنا في إعادة تقرير نظرة كونية ، فيها يؤكد العالم والحياة على نحو مقنع، فإننا سنستطيع الهيمنة على انحلال الحضارة المتواصل وبلوغ حضارة حية حقة من جديد ، وإلا قدّر علينا أن نشهد إخفاق كل محاولة لوقف الانحلال !!

« ولن نسلك السبيل القويم إلا إذا اصبح من الحقائق المسلم بها عامة أن تجديد الحضارة لا يمكن أن يتم إلا بتجديد نظرتنا الى الحياة ، وإلا إذا قام **سعي جديد لايجاد نظرة كونية** . والرجل العصري لا يزال خالياً من الشعور الصحيح بالمعنى الكامل لهذه الحقيقة : وهي أنه **يعيش على فلسفة غير مرضية أو لا يعيش على أية فلسفة !!**

« ولا بدّ أولاً ان نشعره بما في هذه الحال من خطورة وعدم طبيعية ... كما أن الاشخاص الذين تبدو عليهم اضطرابات في جهازهم العصبي لا بدّ ان نخبرهم بوضوح ان حيويتهم مهددة ، وإن كانوا لا يشعرون بأي ألم !!

« وبالمثل ينبغي علينا أن **نهز الناس في هـذا العصر ، وندفعهم الى التفكير الاولى في حقيقة الانسان ومكانته في هذا العالم** وماذا يريد ان يفعل بحياته ... لانهم حين ينطبعون بضرورة إعطاء معنى لوجودهم وقيمه فيشعرون بالتعطش الى ايجاد نظرة كونية ، هنالك وهنالك فقط تتوافر الاسباب الاولية لقيام احوال روحية نستطيع فيها من جديد إنشاء حضارة !! »

« إن كل تقدم في الكشف والاختراع يتطور في النهاية إلى نتيجة قاضية إذا لم نضبطه بتقدم مماثل في روحيتنا . **فبالقوة التي نسيطر بها على قوى الطبيعة نهيمن بوصفنا كائنات بشرية على كائنات بشرية أخرى هيمنة ظالمة مشئومة !!**... فان فرداً واحداً أو شركة بامتلاكه لمائة آلة ، يسيطر على جميع الذين يديرون هذه الآلات ! ولعل اختراعاً جديداً أن يمكّن رجلاً واحداً بحركة واحدة أن يقتل الآلاف من إخوانه بني الإنسان ! وليس ثمّ نضال يمكن فيه تجنّب تدمير بعضنا لبعض بقوى اقتصادية أو فيزيائية ، أو في أحسن الفروض ستكون النتيجة أن يستبدل الظالم والمظلوم دور الواحد بدور الآخر ! الأمر الوحيد الذي يمكن أن يساعدنا هو أن نتخلى عن السيطرة التي لأحدنا على الآخر ، وهذا فعل من أفعال الروحية !!!

« لقد أسكرنا التقدم في الكشف والاختراع الذي غمر هذا العصر ، فنسينا أن نهتم بتقدم الإنسان في غير المادة ، انزلقنا

دون تفكير ولا وعي إلى نوع من التشاؤم ... هو الايمان بكل أنواع التقدم ، دون الايمان بالتقدم الروحي للفرد وللإنسانية !!

« والحقائق تدعونا إلى التفكير .. كما أن حركات السفينة الموشكة على الانقلاب تدفع البحارة إلى الصعود إلى ظهرها وتوثيق الأوقال والأشرعة بالحبال !! لقد أصبح الايمان بالتقدم الروحي للفرد وللإنسانية أمراً مستحيلاً علينا ، لكن شجاعة الناس يجب أن تحملنا على التمسك بهذا الايمان .. إذا كان يراد لسفينتنا في اللحظة الأخيرة أن تنتصب من جديد وتواجه الريح !!! » [1]

وفي الربع الثالث من القرن العشرين – ديسمبر ١٩٦١ – هتف المؤرخ الفيلسوف البريطاني (أرنولد توينبي) في ختام إحدى محاضراته التي ألقاها في القاهرة حين وفد إليها ضيفاً على الجمهورية العربية المتحدة .

« ... واني لأشعر بانحسار (الأديان) الكبرى التاريخية ، وظهور عبادة (القوة البشرية) الجماعية القديمة في العالم الحديث ، وقد ظهرت ثانية بشكليها التقليديين : في شكل عبادة (الدولة المحلية) ، وفي شكل عبادة (الدولة العالمية) ... وتتمثل عبادة الدولة المحلية بشكل واضح في (القومية) ، بينما تتمثل عبادة المجتمع العالمي إلى حد ما في (الشيوعية) وفي الأمل الذي يداعب العالم لتحقيق نوع من الوحدة العالمية والحكومة العالمية .

(١) شفيتزر ، فلسفة الحضارة ، ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوي ، ص ١٠٧ : ١١٠ ، ١١٤ : ٦ ، ٤١١ – ٢

وإنني لأفترض أن هذه الصور لعبادة القوة البشرية الجماعية تشمل ٩٠٪ من الشعور الديني أو ٩٠٪ من سكان العالم في الوقت الحاضر !!

« والواقع إن هذا الانتقال نحو عبادة القوة البشرية الجماعية هو ولا شك السبب الرئيسي للمتاعب والاضطرابات التي تقوم بين البشر ...

« إن الأديان الكبرى جميعاً مهملة، وآخذة في الانحسار ... وربما توقف مستقبل الجنس البشري على عودتها ثانية الى سيطرتها السابقة على البشرية ، أو عجزها عن تحقيق ذلك » [١] !!

هذه نُذر ... من الغرب !!

نذر كبيرة ، من عقول كبيرة ، عن قضايا كبيرة

وعلينا أن نتفكر بكل أعماقنا في التجارب والنذر

« أأرباب متفرقون خير ... أم الله الواحد القهار » ؟؟

« فذلكم الله ربكم الحق ... فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تُصرفون » ؟؟

« كذلك يضرب الله الحق والباطل ... فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .. كذلك يضرب الله الأمثال »

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلوّاً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

---

(١) محاضرات أرنولد توينبي ـ بالعربية ـ مجموعة (كتب ثقافية) ص ٤٦-٧

هذه هي « الفكرة » ...
في « دولة الفكرة »

روى **الطبري** في « ابتداء أمر القادسية » من أخبار سنة ١٤ هـ أن ربعي بن عامر دخل على (رستم) قائد الفرس في مجلسه فسأله : ما جاء بكم ؟؟.... فقال :

« الله ابتعثنا ، والله جاء بنا ، لنخرج من شاء :

- **من عبادة العباد ... الى عبادة الله**
- **ومن ضيق الدنيا ... الى سعتها**
- **ومن جور الاديان ... الى عدل الاسلام**

فأرسلنا بدينه إلى خلقه ، لندعوهم إليه ... »

إن الإسلام لا يعلن النضال إلا لحماية حق الإنسان في الاختيار الحر ... ليكون الفيصل في قضايا الفكر : هو اقتناع (العقل) لا (رهبة السلطة) ... إنه يدفع القوة بالقوة ليكون الدين (لله) ، لا تحت سلطان أحد من (الناس) !!

- **حتى لا تكون فتنة**
- **ويكون الدين لله**

« فإن انتهوا ... فلا عدوان الا على الظالمين » .

إن غايـــة الإسلام الكبرى هي تأمين الحرية .. ثم ليعتنق الناس بعد ذلك ما يشاؤون ، اذ لا إكره في الدين ، لا يُجبر الناس حتى يكونوا مؤمنين !!

فهرست

صفحة

مطبعة الحرية - بيروت

هـذا الكتاب

دولة « الفكرة » هي حلم البشرية ..

— إنها دولة لا تقوم على حتميـة ظروف الأرض أو الدم ... ولكنها تقوم على « اختيار » الإنسان ، بوعيه الكامل وإرادته الحرة !!

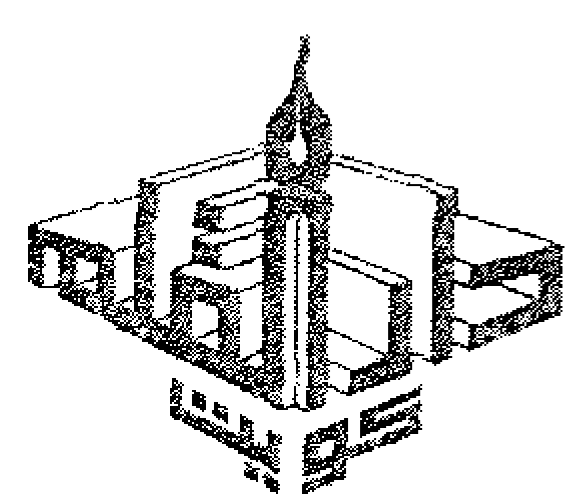
— وبالنسبة للفكرة : كل أرض سواء ، وكل سلالة سواء ، .. إنها تخاطب « الفكرة » في أي إنسان ، وكل إنسان !!

— ولقد كانت الدولة التي أقامها رسول الاسلام في المدينـة تجربة حية مبكرة للدولة الإيديولوجية في التاريخ !!

— لم تكن دولة « مكة » أو « قريش » .. ولا دولة «المدينة» أو « الأوس والخزرج » .. بـل كانت دولة « الإسلام » ، المعروض على عقل إنسان .

— دولة التقى فيها المهاجرون والأنصار ، مع صهيب الرومي وبلال الحبشي ،وسلمان الفارسي ، هذا اللقاء التاريخي الفريد .. فكانوا جميعاً أعضاء مؤسسين ومواطنين أصلاء في هـذا المجتمع وهذه الدولة..وهكذا تحقق الحلم المنشود،في ذلك الزمن البعيد.

« ويسر دار القـلم » أن تنشر هذا القبس من هدي الماضي على مواقع الخطى نحو المستقبل .. من أجل إنسانية واحدة ، تتعامل وتتواصل في عـالم واحد ، على أساس من منطق الفكر وإخلاص الضمير .



تطلب جميع منشوراتنا من :

• دار القـلم الكويت
شارع السور - عمارة السور - بجوار وزارة الخارجية
ص.ب ٢٠١٤٦ هاتف ٤٢٥١٦٠

• النـ
بيروت ... سوريه - بنايه حمدي وصالحة
ص.ب ٧٤٦٠ هاتف ٢٩٥٥٠١